الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef



سمير قسيمي

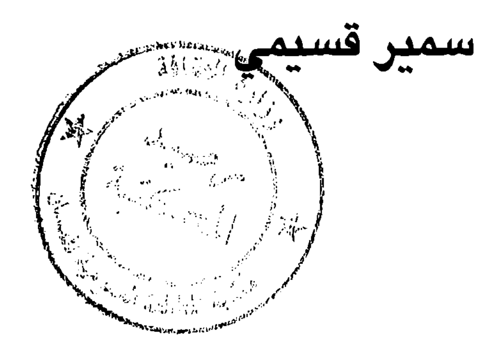
هلابيل

رواية



رواية

سمير قسيمي





الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

1431 هـ - 2010 م

ردمك 978-614-01-0013-8

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
149 شارع حسيبة بن بوعلي
الجزائر العاصمة - الجزائر
هاتف/ فاكس: 21676179 213+
e-mail: editions.elikhtilef@gmail.com



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: bachar@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (1-961+)
الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (1-961+)

المحتويات

القسم الأول
.. بعد الرواية

القسم الثاني
.. ملاحــق

إهداء..

إلى ملاك اسمه.. زوجتي

إلى الساكن في قلب تولستوي.. وحيد قياسة

إلى روح الراحل عبد الله طرشي أينما نزلت.. في الجنة أو الجحيم..

آتٍ من الأرض، كأشجار الصنوبرْ

يعشق الأرض

وتعشقه السماءْ

يخدش الرحم الذي زرعوه فيه.. كي يكونْ

ينتظر اللحظة كي يأتـي

كي يخرج من جسد الأنثى

ويحوّل من حملته قرونا

امرأة.. لا يحرثها القادم من خلف السر

لكن اللحظة لم تأت

واستدت قرنا..

قال القادم من خلف السر: "إن الوافد لن يأتـي"

قالت أم الوافد.. "بل يأتـي"

صرخ الوافد من جدران الرحم:

"سأقيل اللحظة من قاموس الوقت"..

من كتاب خلقون "أحاديث الوافد بن عباد"

القِسْمُ الأوَّل

.. بعد الرواية

تناجي

-1-

حين شاهدتهم واقفين حولي لم أدرك أنني مت منذ ساعة، فذكريات لحظاتي الأخيرة انمحت وهم حولي واقفون. سمعت نحيبا وأصوات مبحوحة بالكاد فهمت منها ما حدث، وأن هؤلاء ليسوا سوى بعض من عرفت في سنتي الأخيرة. لم يكن لي بينهم أي قريب، لا أب ولا أم ولا زوجة، أما إخوتي فلا أحسبهم سمعوا بأخباري منذ قررت الانسحاب من حياتهم قبل عام، حين كنت واقفا كهؤلاء أمام قبر أمي أستمع لدعاء الإمام وجميع إخوتي حزانى، أما أنا فقد كنت سعيدا لموتها..كسعادتي الآن بموتي.

تتساءلون، ربما، كيف لميت أن يحكي قصته، من حقكم أن تتساءلوا ومن حقي أيضا أن أرجئ الجواب إلى حين أنتهي من سرد قصتي، تلك التي بدأت يوم ولدت. أظنني يومها لم أحضر نفسي للخروج إلى هذا العالم أو للدخول إليه، ولكن الطبيب أجبرني على ذلك خوفا على حياة أمي. خيّرها بين حياتها وحياتي، فاختارت حياتي وأن تكمل شهور الحمل، ولكن أبي اختارها هي وأذن للطبيب أن يخرجني، أما أنا فلم أختر أي شيء. لم أمكث في بطن أمي أكثر من ثمانية أشهر. زعم الطبيب أنني شكلت خطرا عليها، لأُجبر على

الخروج إلى هذا العالم وعلى دخول سجنه بتهمة خطورتي على حياة مـن منحتنـي الحيـاة. كنت أنا المتهـم بمحاوله قتل أمي رغم براءتي، رغم أن أبي هو من جعلها تحبل بي، فقد كنت آخر بطن لها، الخامس عشرة بلغة الأرقام. كنت آخر سلسلة امتدت من سنة الثورة وانتهت عندي بعد سـبع سـنوات كاملة من الاسـتقلال.. أول إخوتي يكبرني بعشرين سنة، وأصغرهم بسنة واحدة.

حيـن ولـدت لـم يشـأ أبي أن يختار لي اسـما، ربما لأنني كنت متهما كما قلت. فضل أن تختاره أخته العاقر، عمتي، وقبل أن تختار سـألته بخبث إن كان يرغب في التنازل لها عني، فهز كتفيه غير آبه، ثم سـألتْ أمي فابتسـمت بمرارة وهي تعلم أن لا قرار لها حتى في بطنهـا، فهـي مجـرد بطـن تحمل وفرج ينتهكه أبي في سـاعات فراغه أو شهوته. ومع هذا قاومتْ خوفها وجلدت أبي بنظرة جعلته يقولها رغمـا عنـه: "حيـن يكبـر سـأرى". بالطبع لم تكن عمتـي لتصبر على المسـتحيل، فأسـمتني انتقامـا لهـا "قدور".. حاولـتْ أمي أن تعارض بنظرة أخرى، ولكن أبي سبقها بقبوله، وصرت أنا قدور.. قدور فرّاش ولد بلقاسم..

خروجي إلى الحياة لم يكن سـهلا ولا برغبتي، وخروجي منها كان كذلك صعبا ورغما عني. وكما أحببت رحم أمي، أحببت أيضا تلك الحياة التي بدأتُ أعيشها منذ سنة، لذلك فلا بد أن أعترف أنني لست سعيدا تماما بموتي، فبين الواقفين أمام جثني امرأة في الأربعين أحبها، وجدتني منهكا منذ سـنة، وقبلت أن تأوي مخاوفي وجنوني، جعلتني أحب لأول مرة، وثقتُ فيها وسلمتها ما تبقى من حياة أفقدها الحقد رائحتها. كانت حياتي نتنة ولكنها اغتسـلت وتعطّرت في آخر سنة، ولولا أنني وعدتكم بسرد كل قصتي لاكتفيت بقصتي معها، على

الأقل كنت سأجعلكم تسعدون لأجلي، على عكس هذه القصة التي لـم تنتـه حتـى بعد موتي، بدليل أنني الراوي. صحيح أحب لو رواها سواي، ولكنني لست ساذجا لأصدق رغبتي، فمن أنا لأملك راوية؟..
لم أكن في البداية إلا مشـروع حياة قذفه أبي في فرج أمي شـهوة أو مللا، فأبي لم يحب أمي، رجل مثله لا يُحِب ولا يُحَب. أتخيله في تلك الليلة يدخل غرفتها عائدا من سهرة استثارته فيها إحدى عاهرات عمـر الخيـام دون أن ينالهـا، يفرج بين سـاقي أمي وهي بالكاد قادرة علـى فتـح عينيهـا، يقتحمهـا دون مقدمات. وفـي لحظات يهدأ وأمي لم تستفق بعد من تعبها، ثم ينسحب كالثعبان إلى المرحاض ليقضي حاجته، وكأنه لم يفعل شيئا يستحق الذكر. تعود أمي إلى نومها وفي نفسـها شـيء لطالما لازمها منذ عشـرين سـنة بعد كل اقتحام، هي لم تعرف أبدا ما هو، ولكنها في المقابل تشـعر به، ويزداد شـعورها به مع كل اقتحام جاف، كلما اشتهاها أبي أو أصابه الملل.

هكـذا أحـب أن أتخيـل أمـي، امـرأة سـاذجة لا تفهم جسـدها، جهلها يجعلني أرأف لحالها، يمنحني القدرة على احترامها أو حبها، ويجعلني لا أشعر بشيء تجاه هذا الذي قذف بي في رحمها وأرغمني على المجيء.

أنا أيضا لـم يشـعر تجاهي بأي شـيء، لم يحبني ولـم يكرهني، كنت بالنسبة إليه كأي قطعة أثاث في البيت..

قطعة أثاث؟!..

ها أنا أعطي لنفسي قيمة لم أعرفها، كنت بالنسبة إليه كلاشيء. بالـكاد كان يلاحظنـي حيـن أوقظـه ببكائي في الليل، فيصرخ في أمي ويأمرهـا أن تحملنـي إلـى مكان آخر، يقول لهـا "احملي ولدك بعيدا عني"، فأنا بصراخي لم أكن ولده، ولدها فقط.. تحملني مرغمة إلى

الرواق وتضمني إلى صدرها، حتى إذا شممتها أصمت وأستسلم للنوم.. كانت المسكينة تظن أن هزها لي ما يجعلني أهدأ، في الحقيقة كانت رائحتها من يسكنني ويريحني. وربما أنا أيضا كنت راغبا أن تحملني بعيدا عنه.

غريب أن أتذكر الآن هذه الأشياء، حتى أنه من الغريب أن أتذكر أشياء في ذلك العمر وذاكرتي لم تتشكل بعد، ولكنني وأنا ميت أسترجع الأشياء في حياتي وكأنني أشاهد فيلما أنا بطله.. أخيرا أصبحت بطلا لشيء ما، ربما لهذا منحني الملَكان وقتا آخر أقضيه في التذكر والتمتع بوجه "نوى" لآخر مرة، وجه رغم شحوبه يغمرني سعادة.. عيناها مرآة حياة لم أعش فيهما إلا عاما واحدا.. عام من الحب والسكينة، منحتني فيه ما لم تمنحني حياتي كلها.

أعرف أنني أتعبتها أكثر مما أسعدتها، ولكنني أشعر أنها راضية عني. أرى ذلك وهي تنظر إليّ الآن بعينين اغرورقا دمعا. علام تكابر وتمنع نفسها من البكاء؟.. ابك حبيبتي لتغسلي خطاياي وتنسل من قلبك الرقيق ذكراي، ولتبدئي من جديد. ستجدين حبا جديدا ورجلا يمنحك حياته كلها وليس سنة فقط. ابك فأنا لم أكن إلا محطة مر بها قطار قلبك الرحيم رغما عني. أردت أن أردَّك ولكنك بعنادك الفطري جعلتني أستسلم وأنزع أقنعتي، أنت وحدك من رأى صورتي كما هي. نظرتِ في داخلي ووجدتِ الطفل الذي طرده أبي من رأفته، وأخذتْه مخاوفه بعيدا عني.

أعترف أنني ندمت حين تركتك تنتزعين آخر أقنعتي.. ارتبكت حين أمسكتِني من يدي وأخرجتني من داخلي، قلت لي: ماذا ستخسر لو تجرب الخروج. صدقتك ومشينا سنة على حبل جنوني وأنا خائف أن تسقطي منه، ولكنك وثقتِ بي وسرتِ معي عليه حتى وصلنا.. أنا

إلى هذا الذي كان ينتظرني منذ ولدت، وأنت إلى هنا.

أدرك أنني كلفتك بمهمة جلل، ولكنك آخر من تبقى لي قبل رحيلي. حتى بعد موتي أثق فيك فثقي فيّ وابك. حينها فقط ستجدين الشجاعة لتفي بوعدك لي، وحينها ستصبحين حرة مني إلى الأبد، حتى ذكراي اجعليها في آخر كراسة ذكرياتك، وإن شئت امحها، فلن يهم بعدها أن أغرق في النسيان، فحينها ستنتهي أيضا مهمتي، وأكون قد أوفيت أنا أيضا بوعد قديم. أما الحب فيمكنك أن تحبي من جديد، فلست أنا من منحك شيئا، أنت من منحني كل شيء.

أحاول أن أصرخ كي تسمعني أو أطبق جفنيَّ لئلا أراها فلا أستطيع. يبدو أنني انفصلت عن جسدي أو لعل جسدي انفصل عني!.. لست أدري. ما أدركه أنني لم أعد قادرا على التحكم فيه، خرج عن طوعي وأرغمني أن أنظر إلى نوى وحزنها دون أن أقدر على التدخل.. أهكذا يبدأ عذاب البرزخ؟ أمن هنا يبدأ؟..لا أظن، فحسب الكتب سيأتي ملكان في صورة أفعالي يسألاني عن أشياء كثيرة، وحين أرتبك أو أتلعثم أو أخطئ، يضرباني بهراوة عظيمة، وحين أحسن الإجابة ينتقلان إلى سؤال آخر، وفي النهاية بعد أن ينتهي الاستجواب، يرياني مكاني في الآخرة، في الجنة أو الجحيم. الأكيد أن ملكيَّ غاية في القبح، وأنهما سيقضيان وقتهما في قرعي وضربي، وحين ينتهيان سيرياني مكاني في الجحيم. فأنا لم آمل شيئا في حياتي لآمل في الموت، ثم ماذا فعلت لأدخل الجنة؟.. أعرف.. أعرف أن الكتب تقول أن الواحد يجالس من أحب، وأنا لم أحب إلا أمي ونوى، وهما حتما ستدخلان الجنة، سيكون رائعا أن أكون معهما.. ولكنني بالمقابل أومن أن عدالة الله أعظم من أن تظلماهما بي مرة أخرى.. إن كان لي رأي في ذلك فأفضل أن يكون أخي

السايح جليس أمي في الجنة، ويكون جليس نوى.. أغار أن أقولها.. أي رجل تحبه بعدي.

هما تستحقان أن ترتاحا مني، ثم ليس من المعقول أن يعاقب الله من يدخلون جنته..

السايح يستحق أن يكون جليس أمي.. لم يعش طويلا ولكنه كان أحب إخوتي إليّ. مات بشيء لم نفهمه، أقعده مرضه أربعة أشهر كاملة، دون أن يسمح لنا أن نحضر له طبيبا يكشف عليه.

شهور قبل أن يلزم الفراش طلب من أمي أن تفرد له كوبا وصحنا وفنجانا وملعقة، قال لها أنه مصاب بالتهاب الكبد الفيروسي ويخشى أن يعدي أحدنا. نحن بدورنا لم نحاول أن نسأله عن مرضه. فعلنا ما طلبه منا دون أن نسأل.. حاولت ألا يثير فيَّ هزاله الذي بدأ يحتد أي سؤال، ربما لأنني أملت أن يستمر في الحياة ويحمل عني بعض أعباء البيت، بعد أن رحل الجميع وصرنا أنا وهو نعيل والدينا وندفع إيجار السكن بعد أن تزوج من تزوج، ومات من مات، ولم يبق سوانا يطالب بالمصروف، فجميع أشقائي كالسلاحف البحرية، بمجرد أن فتحوا أعينهم تركوا المنزل وأهملوا والديّ. صحيح أنه لم يكن يساهم بالكثير، ولكن قليله كان يحمل عني ويجعلني أرضى بقدري. لم أكن أتذمر ولست أتذمر الآن، فأنا فقط أحكي ما كان بشيء من الصدق، صدق كثيرا ما كانت تصيبني نوباته فأتشاجر مع السايح، كنت ألومه على راتبه الذي يصرفه على الكتب والنساء والرحلات إلى الصحراء، وحين كان يراني أنفجر غضبا، يتركني حتى أهدأ دون أن ينبس بكلمة، يرسم على وجهه ابتسامة لا أعرف من أين كان يجلبها، هادئة، مهدئة، رحيمة.. لا أعرف كيف أصفها.. تثير في نفسي ما كانت تثيره فيّ ابتسامة أمي، وما أصبحت لاحقا

تبعثه في نفسي ابتسامة نوى، خليط من الرحمة والصدق والطمأنينة. وإذ ذاك أستسلم لهدوئي ولحكاياته التي تنتهي بوعد كاذب في توبته عن النساء، وباعتراف صادق في عدم قدرته على التوقف عن القراءة والسفر.

كثيرا ما سألتُه عن سبب ولعه بكتب الرحالة والصحراء التي لم يكف عن زيارتها، وعن تلك اللغة الغريبة التي بدأ في تعلمها بشره مخيف. فلا يجيبني إلا برفع يديه إلى السماء وكأنه يقول "الله" أو "الله أعلم"، لم أكن أعلم قصده بالضبط. وحين كنت ألحُّ عليه يستفزني بسؤاله: لماذا يهتم فتى توقف في الابتدائي بكتبي؟.. فأتراجع وألوذ بالصمت.

في العادة أشعر حين أعيّر بمستواي بالقليل من التشفي من سوء طالعي والكثير من الاحتقار، أما حين كان يعايرني السايح أشعر ببعض الخوف مما كنت أراه في عينيه حين يقول جملته تلك. لا أعرف ما جعلني أتصور أنه كان قادرا على اختراقي والنظر في داخلي. لم أكن ألوذ بالصمت إلا خوفا من أن يكون قد كشف سري، ولكنني سرعان ما أقمع مخاوفي تلك بيقين واقعي، وكلِّي ثقة ألا أحد سيكتشف ما أخفيه، فأي غبي سيفكر أن قدور فرّاش، الحمّال، يملك سرا. كنت في نظر الجميع، بمن فيهم أمي، رجلا بالكاد يفك الحروف، عرف السجن مرتين، مرة مع زوجة عاهر طلقها أسبوعا بعد الزواج، ومرة قبلها وهو في العاشرة..

أي سر هذا الذي تتحدث عنه وخشيت أن يكشفه أخوك؟..

لو قلته لنفسي لما صدقتُني. وحدها نوى من استطاعت كشفه، حتى لم يعد السر مهما. صالحتني مع ذاتي وأخرجتني من قمقمي وكسرت القمقم حتى لا أعود إليه، قالت لي: عليك أن تكون أنت

وتنزع عنك وجه الحمال الخجل من نفسه.

وحين كنت أحاول أن أعلق، تحدثني عن المقادير وتهدئ من روعي بشفتيها العسليتين، تقطران عسلا نحليا كثيرا ما حسدت نفسي عليه، تمررهما على رقبتي وعلى وجهي، فأغمض عينيّ رغبة في المزيد من الاستثارة، تصدر صوتا يتناهى إليّ كمزيج من المواء والشهيق والزفير..

أي نعمة كنت يا نوى.. أي جنة أنت يا نعمتي؟...

الآن يمكن للمَلَكين أن يأتيا، أن يسألا عن أي شيء، يمكنهما أن يضرباني ويسحباني إلى الجحيم.. لن يهم، فعلى الأقل عشت جنتي قبل أن أموت...

-2-

كدت أصدق أنكَ جائزتي، ثوابي على توبتي المتأخرة..

لا تغضبْ لن أقول توبتي. أعرف أنكَ تمقت هذه الكلمة، تظن أنني ملاك، لم تقلها صراحة ولكنني كنت أشعر بها كلما حدّقت فيّ. لم تمل أبدا من النظر إلي، وكأنك تعيد اكتشافي في كل مرة نكون فيها معا. وحدك من جعلتني أحس بإنسانيتي، لم أكن قبلك إلا قطعة لحم تشتهيها العيون، وحين تنالها تملها في الحين، أما أنت فمختلف، أدركتُ ذلك أول يوم رأيتك فيه، واقفا بجنب عربتك. لا أنكر أنني اشتهيتك لحظتها، وأي امرأة لا تشتهيك؟، ولكنك لم تعرني انتباها أو لعلك لم تلاحظني حتى.

ساعتها استثارني تجاهلك حتى رسخت صورتك في رأسي وتمنيتك قبل أن أعرفك، وحين عرفتك تمنيت أن ألغي كل من عرفت قبلك من رجال، وكم كانوا كثرا.. فقط لو تركتني أكاشفك بحياتي قبلك، ولكنك كنت ترفض معرفة أي شيء عن ماضيَّ. حتى الآن وأنت ممدد بلا حراك تفرض الصمت عليّ، مازال سؤالك الذي لم تملّ من تكراره يلجم فمي ويمنعني من المكاشفة:

- هل كنتُ حاضرا في ماضيك؟

أجيبك بسذاجة:

- لا.. لم تكن حاضرا..

تبتسم وأنت تعرف الجواب سلفا، تقبل جبيني وتضمني إليك

وأنت تهمس لي: " إذن، ففيم ينفعنا الماضي؟" .

لم أكن أجد ما أضيف، أنكمش في حضنك ورأسي على صدرك، أسمع نبضات قلبك الطيّب، أكاد أقسم أنها كانت كحروف تتدافع، تلتصق وتصطف، تشكل جملة لطالما خرجت من أفواه رجال قبلك ولا أسمعها، أما نبضات قلبك أنت تقولها بشكل مختلف، تجبرني في كل مرة على الإصغاء إليها، تجبرني على الإيمان بها من جديد.. "أحبك يا نوى".. أعرف أنك لم تنطق بها أبدا، ولكنني كنت أراها في كل مرة تحدق فيّ، تطفو على عينيك الحزينتين دوما رغم سعادتك.

الآن أنت مجبر على الإصغاء، فبقدر ما أنا حزينة عليك، بقدر ما أنا سعيدة أن منحني سكونك فرصة الاعتراف. أتمنى فقط أن يجد اعترافي طريقه إليك، فبعد ما عشناه سوية لم أعد أومن بالمستحيل، أما إذا لم يصلك اعترافي فأعدك أنك ستسمعه مني حين نلتقي من جديد، وسنلقي.. أعدك، سواء صعدت إلى الجنة أو نزلت إلى الجحيم، أم تظن أنك تخلصت مني بسكونك هذا؟.. حتى ما كلفتني به لن يمنعني من الاعتراف. أظن وصيتك ستكون رشوتك للإصغاء إلي، وستقبل رشوتي هذه المرة، على مضض ربما، ولكنك ستقبلها وتصغي إلي، فبعد ركونك إلى السكون، لا تملك أي خيار آخر. سأستغل فرصة رغبتك في تنفيذ وصية السايح لأقول ما رغبت قوله طول هذه السنة. هكذا ستتخلص أنت من وعدك له وأتخلص أنا من وزري.

أحبك، ولأنني أحبك سأخبرك الآن بشيء أبقيته في صدري حبا لك أو خوفا عليك.

لا تخش. ليس شيئا من ماضيَ الذي لم تكن فيه، فذلك سيحين

وقته حين أنتهي من المهمة التي كلفتني بها، هو من حاضرنا الذي لم يعمِّر أكثر من عام واحد. لم أكن صادقة معك كل الصدق ونحن معا، أخفيت عنك حقيقة خشيت لو عرفتها أن تطردتني من حياتك ولكنني كنت مجبرة على تنفيذها، وكأنني لم أخلق إلا لتنفيذ الوصايا، وصايا رجال أحببتهم على فراش الموت: وصية أبي أن أعتني بإخوتي، وصيتك أنت بتنفيذ تلك المهمة، وقبلها وصية رجل أحببته بشكل مختلف عنك وعدته أن أهتم بك بعد رحيله.

نعم.. لم يكن لقاؤنا صدفة، ولا أعتقد أنك صدقت أن لقاءنا كان كذلك. أنت تعرف هذا الرجل، أحببتَه إلى درجة أنك جعلت غاية حياتك خدمته وهو ميت.. تفهمني بالطبع.. إيه أقصد أخاك السايح.

كان آخر أشباح ماضيَ الذي رفضت مجرد الاطلاع عليه. كنتَ محقا عندما قلتَ أنك لم تكن في ماضيّ، لكنك لم تكن تعلم أنني كنت في ماضيك، لهذا لم أكن أجرؤ أن أضيف شيئا حين كنت تخلص إلى استنتاجك الطيّب:.. "إذن، ففيم ينفعنا الماضي؟" . أرأيت كم كنت مخطئا في ذلك؟..

الآن أشعر أنك أصبحت أكثر قابلية للإصغاء..

بالطبع أنت كذلك. كل ما له علاقة بالسايح يهمك. ألم تصبح مهووسا به في آخر أيامنا معا، حتى بعد أن سلمتك وصيته وكشفتَ كل سره لم تهنأ. اخترعت لنفسك مهمة أخرى من أجله وأغلقت بابك على نفسك ثلاثة أشهر لا تفعل فيها شيئا غير الكتابة. حتى التدخين توقفت عنه من أجل هذا الكتاب الذي كنت تصنعه، قلت لي أنه أصبح يلهيك عن عملك..

عملك؟!..

لماذا وصفته كذلك، وأنت حين انتهيت منه وقعته باسم السايح؟..

أقسمتُ لك مجبرة ألا أبوح لأحد بأنك أنت من كتبه. السايح لم يكتب شيئا منه، أنت من أخرجه من قبره وقطع يده واستعملها. ليس للكتابة، فقط ليوقع كتابا لا أظنه حلم يوما أن يكتب مثله. حتى وإن راوده هذا الحلم، ما كان ليكتب مثله أبدا.. أعرفه يا حبيبي الممدد في سكونه، الهانئ به.. أعرفه، عاشرته سنينا، أكلت من عسله وعلقمه. لم يكن ملاكا مثلما تصورت أنت، كان مجنونا مصابا بنوبات عقل.

لو كنت تراه حين يعود من صحرائه تلك لفهمت قصدي، لكنك لم تره، لذلك لا يمكن أن تصدقني.. صدق فقط أننا لم نلتق صدفة. أخبرني عنك، عن كل شيء يخصك، حتى سرك الكبير أخبرني به.. أرأيت؟!.. لم يكن السايح ملاكا ولا أنا يا حبيبي الممدد في سكونك، أنت فقط من يستحق هذا الوصف. أما نحن فلم نكن إلا بائسين تعلقا بجناحيك..

لم أقترف في حقك ونحن سوية أي إثم، أحببتك صادقة وبجنون، أنت وحدك من أحببتُ بصدق، لأنك وحدك من رآني حقيقة. لن أنسى حين احتلتُ عليك وأدخلتك شقتي، أخبرتك أني أريدك في عمل. صدقتني بطيبتك وركبت معي سيارتي. حاولتُ إغواءك بكلام عادة ما يسقط الرجال في بدايته، ولكنك صمدت، تظاهرتَ أنك لم تفهم وبقيتَ تسألني عن طبيعة العمل وأنا ألف وأدور دون أن أخبرك بشيء، كنتُ أستمتع في داخلي لأنك لم تفهم بعد أنك أنت ذلك العمل.

دخلنا الشقة فرأيتك تتطلع إلى ما فيها، أذكر أن المكتبة

استوقفتك، أخذتَ تجول بناظريك بين كتبها وتتخير بعضها تقرأ عناوينها وأسماء أصحابها. أخبرتني لاحقا أنك كدتَ تكشف سرّك العظيم ساعتها، فلا شيء كان يغويك أكثر من الكتب. سألتك: حتى أنا؟.. أجبتني بلطف: حتى أنت..

صدقك كان مطلقا لا يعرف اللباقة. ولهذا أحببتك بكل جنون..

حين انتهيتَ استدرت إليّ مرتبكا وسألتني: إذن.. أين هذا العمل؟.

تملكني غرور الأنثى وقد حسبت أنني من أربك، لم يخطر على بالي أن خوفك من انكشاف سرك ما جعلك ترتبك وتتلعثم في سؤالك، لهذا قلت لك في البداية أنني لم أكن أعرفك. صحيح أن السايح أخبرني بكل تفاصيل حياتك، لكنه لم يطلعني أبدا على طريقة تفكيرك. غالبا لأنه كان يجهلها هو أيضا، فكيف له أو لغيره أن يفهم كيف تفكر، حتى أنت لا أظنك استطعت فهم نفسك. كنت تسير فقط وتترك الزمن يقرر.. على الأقل هذا ما أخبرتني به وأنت كما عرفتك لا تكذب أبدا.

سألتني مرة أخرى فتقدمت نحوك، التصقت بك وتركتني أفعل. حدثني غروري أنك سقطت في جحيمي. تخيلتك تجثو على ركبتيك ككل من عرفت، ولكنك صمدت. قتلتني بابتسامتك الطيبة وبقبلتك الدافئة على جبيني وعبرت صراط الاختبار دون أن تهوي. كأنك لم تشعر بناري التي لو تركتها تشتعل لالتهمتنا معا: أنا، أنت وتلك الكتب اللعينة التي استوقفتك أكثر مني..

-3-

أي نعمة كنتِ يا نوى؟.. أي جنة أنتِ يا نعمتي؟...

علام أسأل وأنا أعرف الجواب منذ لحظة طاوعت عقلي وخرجت من شقتها. فكرت أنها احتقرتني وأنا أرفض عرضها، وطمأنت نفسي وقلت لها "هذا أفضل.. ففي رأسي أمور تشغلني وقرار أفكر فيه. أما النساء فقد عشت أعواما بدونهن، فماذا تغير الآن.. لا شيء إلا المزيد من المشاكل المستعصية".

رحلت أسحب وحشا حسبتُني وأدته منذ سنين.. دخّنت الكثير من السجائر لعله يهدأ ويعود إلى سباته القديم، ولكنه استمر في ثورته وصراخه.. سألتُني "منذ متى تسكنني الرغبة هكذا؟".

بالطبع كنت أعرف الجواب، ولكنني أملت أن يبيد رغبتي الحقدُ في داخلي وقد نميتُه وأرضعتُه سنوات سجني، وروضته منذ زواجي من ابنة خالتي عقب خروجي من السجن.

قالت أمي: "هي ابنة خالتك، تسترك وتستر عليها". صدقتها وأقمنا المأتم، أقصد العرس..

يومها كنت سعيدا، هكذا أتذكر شعوري وأنا أدخل عليها. لم أكن سعيدا بها بل بحياة جديدة بعيدة عن "البريفوات[1]" و"القففف"[2]والعنابر والطوابير التي لا تنتهي، ولا أدري لم تصورت

---

(1) جمع "بريفو" ويعني في لغة المساجين رئيس القاعة.

(2) جمع قفة، معناها الزيارة التي يحظى بها المسجون كل أسبوع.

أن الزواج سيلغي ذاكرتي ويخلقني من جديد؟..

وجدتها شاحبة تنتظرني، حاولت أن ألطف الجو حتى تتخلى عن خجلها، ولكنها استمرت في صمتها وشحوبها. أخبرتها كذبا لأخفف عنها أنني مستعد أن أنتظر إلى الغد إن لم تكن جاهزة، فجلدتني بابتسامة أشعرتني أنها مشفقة عليّ. رسمتها على وجهها أملا أن أسألها عن سبب عبوسها، لكنني لم أفعل.

ألم أكن من الفطنة لأدرك سبب خوفها، أم تراه خوفي، أنا، ما جعلني أتغابى عن فهم ذلك العبوس؟.

أتساءل وفقط..

حين اكتشفتُ الأمر، حاولت أن أهدئ من روعها. قلت لها أن سرها سيظل في بئرها ولكنني لن أقبل أن تبقى زوجتي لأكثر من أسبوع. قبلتْ مرغمة وهي تشكرني. قلت لنفسي امرأة أخطأت وستجد بعدي رجلا يسترها، ولن يهمه أن تكون بكرا ما دامت تزوجت قبله.

بعد ثلاثة أشهر علمت أنها تطلبني للتقاضي لأنني هجرتها..

لم أر ابنة خالتي بعد ذلك، سمعت أنها تزوجت وطلقت مرتين وأنها أنجبت خمسة أولاد. أما أنا فسرت في طريقي أحمد الله ألا امرأة قطعته، أو هكذا حسبت حياتي تسير حتى اقتحمتها نوى وجعلتها بجسدها تخرج عن سكتها التي هجرتها منذ ذلك الحين.

المسكينة كانت تظنني أجهل ماضيها، تحاول في كل مرة أن تعترف لي بخطايا لا علاقة لي بها، وكنت في كل مرة أقول لها أن ماضيها لا يهم، وأنني اكتفيت بما هي عليه ونحن معا، فتصمت، دون أن تكف عن المحاولة. تماما مثلما فعلت بعد أن تركتها في شقتها

ملتهبة. قالت لي أنها احتقرتني يومها، مزقت كل الكتب التي كانت تزين مكتبتها، شعرتْ أنها كانت عندي أهم منها، لم تكن تعلم أنني حاولت بتلك الكتب أن أفك حصارها الذي أطبقته عليّ.

آه يا نوى لو تعلمين؟..

ربما تعلمين، فلم أعد متأكدا من شيء وقد فارقتُني رغما عني. لم أكن أعلم أن آخر حرف في كتاب السايح الملعون سيكون آخر أحرفي.. لم أعلم أن لقاءنا لم تكن غايته إلا أن أنفذ آخر وصاياه..

لا زلت أذكره ممددا في سكونه، يصطنع ابتسامة الراضي بمآله، بموته.. يحدثني بصوت يسابق الوقت فيسبقه، فلا يسعني إلا أن أملأ فراغات حديثه المنهك، وفي الأخير حين يدرك تمنّع الكلام عليه، يسألني محركا رأسه أن أنحني عليه فأمتثل رغم رهبتي من سقامه الغريب. يشعر بخوفي فيهدئني بعينين رغم شحوبه تتوهجان حياة، فأستسلم لحبي له وأصغي.. كانت آخر حديثه.. وصيته.. لعنته التي مسختني إلى ما صرت عليه.. ألم يكن أفضل لو رحمني وتركني أموت في جسد "العتّال" الذي كنتُه، على الأقل ما كان ليهمني ما بعد موتي، ولما كنت أملك ما أحكيه.. ربما كنت تزوجت وعشت أطول.. ما أدراني.. ربما، فبعد الذي عرفته يمكنني أن ألعن لحظة رق قلبي وانحنيت عليه وتركته يقول آخر جمله. كنت قبلها رجلا كأي رجل يشحذ أحلامه في الصباح ليكنسها في الليل، فلم تكن أحلامي كثيرة بعد خروجي من السجن، وتقلصت بعد طلاقي من ابنة خالتي.. كانت أحلاما تمنح ابتسامتي طعمها، وتبيّض حياة سوداء منذ عرفتها، تجعلني آمل أن أشطب سنوات السجن من ذاكرتي وأفترض أنني ولدت يوم خرجت منه. غالبا لهذا تزوجت، ولهذا اخترت عمل العتالة، لأنهك جسدي العملاق نهارا، وأخرّ في الليل متعبا لا أفكر

إلا في الرقاد. فشلت في الزواج وبقيت ستة أعوام بعده أحتال على ذاكرتي بالتعب، حتى خلت سنين السجن انمحت منها، إلى أن جاءت نوى وأجبرتني على التذكر..

كانت ليلة من جحيم، قضيناها نمارس الحب دون تعب، حتى انتهينا جسدين لا شهوة فيهما، تشابكنا بأرجلنا وتعانقنا كأنه عناق وداع، جعلتني أصغي للهاثها ولصوتها الخافت.. شكرتني لا أعلم لمَ، وقبَّلتها دون أن أسأل، ثم لفنا الصمت حتى سألتني:

- تحبني؟..

لم أجبها، قبلتها ووسدت رأسها صدري من جديد. كنت خائفا من قول "أحبك"، فتجبرني أن آكل التفاحة ويطردنا الحب من جنته..

أجبتها في سري "أحبك"، وفي جهري سألتها هامسا "هل تحبين أن نتزوج؟". رفعت رأسها بسرعة وبحلقت فيّ، وفي لحظة أدركتْ ما حاولتُ فعله، فأعادت رأسها حيث كان وقالت "لا يهم".. فهمتْ أن طلبي الزواج منها لم يكن إلا حيلة للتملص من سؤالها. بعد تلك الليلة لم تسألني أبدا إن كنت أحبها، حتى حين كنت أحتضر لم تسألني. أتراها عرفت الجواب؟.. ربما.. لست أدري..

ما أعرفه حقيقة أنها كانت هنا يوم بدأ كل شيء، وهي هنا الآن بعد موتي، وستكون حاضرة يوم تنكشف الحقيقة ويعلم الناس أن السايح لم يكن مجنونا ولا معتوها ولا زير نساء. سيعلمون ما كان يسعى إليه، سيمسّحونه حين يقرأون كتابه.. نعم كتابه، لم أكن أنا إلا يده التي كتبت، ولولا موته لما كنت حتى تلك اليد التي صرتُها. ولكن.. ليتني لم أكنها، وليته لم يمت وتركني في نعيم جهلي سعيدا.. ربما كنت تزوجت وعشت أطول.. ما أدراني.. ربما...

-4-

بعد قليل سيأتي الطبيب ليعلن ساعة موته، ستأتي الشرطة أيضا، سيسألونني مثلما فعل الجيران إن كنت زوجته، وسأخبرهم أنني صديقته.

أصلي أن تمنحني السماء القوة لأحتمل نظراتهم الخبيثة التي سيجلدونني بها، سيصدرون حكمهم علي قبل محاكمتي وسيصرخون في سرهم "عاهرة".

لو أنهم يكاشفونني بحقدهم، باحتقارهم لي لما كان يهم. لم يعد وصف "عاهرة" يخيفني، ألفته قبل أن يألفني، وسمعت أشنع منه.. لكنهم سيسرُّون حقدهم وينصرفون، تاركين خلفهم رائحة، لا عطوري وعطور العالم قادرة على إزالتها، كان وحده من يقدر على ذلك، ولكنه رحل..

لا ألومه على شيء، ألوم نفسي فقط، فلو أنني ليلتها ابتلعت غصتي وقبلت الزواج منه لما خشيت أن يجلدني أحد، لكن رغبتي في سماعه يقول أحبك حجبت عقلي وأصمَّت أذنيّ.

لم يقلها كعادته، وكعادته تهرب بأي شيء، واختار تلك الليلة طلب الزواج.

حين سألني اعترتني رعشة ولا رعشة الجماع، رفعت رأسي من على صدره ونظرت إليه، كان يبتسم بحمق، بطيبة. ركزت نظري في عينيه والرعشة تنهش جسدي المنهك من ساعات جماع لم نملّه،

حينها عاودني التعب وتلاشت رعشتي.. لم يكن طلبه طلبا، ولم يكن في حدقتيه شيء إلا انعكاس وجهي النحيل. أعدت رأسي إلى حيث كان على صدره، أصغي لدقات قلبه، وقلت رغما عني "لا يهم"، ثم لم يكد "ميم" جملتي أن يخرج من بين شفتي حتى شعرت بالندم، ربما حاولت أن أقول شيئا آخر، ولكن "لا يهم" تلك، أقالت لساني في فمي، ولفنا صمت لا هدوء فيه، حتى أصبحنا ولم نكن نمنا في ليلتنا تلك ساعة..

لا ألومه بل ألوم نفسي. ليس فقط لعدم زواجي منه، بل على جبني من مواجهة ميت قطعت له وعدا، وفّيت به كأي جارية ترجو رضا سيدها، ألم أكن قادرة بعد موت السايح أن أتجاهل وصيته؟، ولكن لو فعلت لما التقيت بحبي الأوحد، هذا الممدد في سكونه، ولما عدت إلى نفسي بعدما خلت أني ضيعتها منذ سنين. ولكن ما جدوى كل ذلك وقد رحل، أأكون أنا من قتله؟ وإن لم أفعل، أأنا من أوداه حتفه؟ ربما نعم.. ربما لا، لم أفعل إلا اختيار طريق سعادتي. كان هذا خياري الأوحد في كل ما عشته، وربما في كل ما سأعيش..

اخترت أن أقبل وصية السايح وأقود قدور إلى سريري، ثم أسلمه الظرف الذي استودعنيه وأخبره كذبا أن أخاه كان صديقا وحسب. فعلت ذلك ولكنني عوض أن أقوده إلى سريري قدته إلى قلبي. أقسم أنني لم أتعمد الأمر ولم أسع إلى حبه ولم أفكر أنه سيحبني، ولكن الأمور جرت كما جرت. وجدتني قدّامه منهكة، ضعيفة، مستسلمة. رفعت راياتي البيضاء وأنا أراه يزحف نحوي ببراءته، لا شيء يوقفه، حتى سنوات عهري الرهيبة تطايرت أمام زحفه المستمر.. هل حاصرني؟.. هل أجبرني على الانصياع؟.. لم يفعل شيئا غير المجيء إليّ، وعلى وجهه تلك الابتسامة، لم يفعل

شيئا غير تقبيل جبهتي والانصراف من شقة المومس التي كنتُها إلى قلب المرأة التي حولني إليها.

ما زلت أذكر حين أتم كتابه/ كتاب أخيه، قال لي بحب:

- أحدثك أخي عن "خلقون"؟.

هززت رأسي أن "لا"، فأضاف:

- والوافد بن عباد؟

- لا، ولا عن هذا أيضا.

صمت قليلا وأردف:

- عليك أن تعديني أن لا تقرئي ما بهذا الظرف- "وأشار إلى ظرف تملؤه الأوراق"- لا في حياتي ولا بعد مماتي، ففيه كتاب السايح الذي أوصاني بتحريره، فإذا مت قبل نشره عديني أن تنشريه كما هو، دون أن تطلعي عليه.

حاولت أن أحتج أو أعلق، فلم يكن الكتاب كتاب السايح، ولكنه رفع يده وكأنه علم بما يختلج في صدري، فوجدتني صامتة، مصغية، وفي صدري سكينة لا أعرف من أين أتت. ربما لأنني وأنا أبحلق فيه لم أر في حدقتيه انعكاس صورتي، بدتا كبلورتين سوداوين لا تعكسان شيئا.. أأكون تصورت الأمر أم أنه كان حقيقة؟ لا أذكر إلا حديثه بعدها:

- منذ قرون كتب خلقون هذا سيرة رجل كان معلمه يدعى الوافد بن عباد، وخلدها في نثر يشبه الشعر، أو في شعر يشبه النثر، ومنها أحب أن أقرأ لك شيئا، وان شئت اكتبيه لتحفظيه.

قمت لتوي وأحضرت ورقة وقلما وقدور ينظر إليّ مبتسما. كان يعرف ولعي بالشعر، ولطالما قرأ لي بعض أشعاره في الغزل، كان

كلما قرأ قصيدة أسأله في دلال: "أهذه عني؟" فيضحك ويضمني ويهمس لي: "أنت أكبر منها..".

بدأ يقرأ بصوت خافت متثاقل:" آت من الأرض كأشجار الصنوبر/ يعشق الأرض وتعشقه السماء/ يخدش الرحم الذي زرعوه فيه كي يكون/ ينتظر اللحظة كي يأتي/ كي يخرج من جسد الأنثى/ ويحوّل من حملته قرونا امرأة لا يحرثها القادم من خلف السرّ". حين انتهى من القراءة ورأى ما اعتراني من رهبة أو خشوع، نهض إلى حيث كنت وضمني، في حين لم أشعر أنا بتلك الرغبة التي عادة ما أشعر بها كلما ضمني، كانت ضمة أبوية، جعلتني أرتخي وأتخلص مما اعتراني قبلها من رهبة. قال لي وقد ازداد صوته خفوتا "أشعر أنك الأنثى التي أحاول حين أخرج منها أن أحولها إلى امرأة"، ثم صمت ولعلني لحظتها أولت جملته تلك إلى أنه يحبني، ولكنني بعد أن غدرتُ به في ساعة ضعفه وقرأت كتابه أدركت ما كان يعنيه.

ولو أنني أمعنت قبلها في قصة حياته كما أفضى لي بها لأدركت ما أدركته وأنا أقرأ كتابه الملعون، ولكنني كنت وهو حي لا أفكر إلا في حبه الذي قتل المومس وبعث من رمادها المرأة التي صرتُها، ورغم ذلك لن أخدع نفسي وأدّعي أنني الأنثى التي خرج قدور من رحمها وحولها امرأة لا يحرثها القادم من خلف السر.. ولكنني سأقول أن قدور هو الوافد الآتي من الأرض، كوّنه الآن ونفخ فيه ليبعث بعد سنين، ويخرج من رحم اللاحق، في جسد غير الذي عرفناه ولكن بروحه التي ضمتني والسايح ذات يوم وقادتنا إلى الحقيقة التي كنا نخشاها، نفر منها بشهواتنا وعباداتنا، ونقيدها بشرائع لا تحلو لنا إلا حين نخرقها. سيبعث فينا ويعيدنا إلى رحابة الشك بعد أن تهنا قرونا في يقيننا الكاذب، نسميه... أخشى أن أقولها الآن، أخشى أن

أفضح السر وكتاب قدور لم ينشر بعد، واسم الوافد لم تصرخ به المشيئة، ألأن الوقت لم يحن؟.. لا أدري ولكنني سأكشفه، حين أكتب الحقيقة بشكل آخر غير الذي قتل قدور، ومثلما قطع قدور يد السايح ليوقع بها كتابه، سأقطع يد قدور وأوقع بها ما كتبه بنفسه، فنم هنيئا يا حبيبي ودعني أقص حكايتنا مثلما حدثت فعلا، وليس كما أحببتها أن تكون.. نم ودعني أنشر القصة بلسان غير ألسننا، فما نحن في نهاية المطاف إلا شخوصها يصنع بنا الراوي ما يشاء..

-5-

أعرف تلك النظرات، لشدّ ما حاولت أن أمحها من عينيها ولم أستطع.

كان يمكن أن أمحها لو قلت "أحبك" ولكني خشيت أن تروي ظمأها منِّي وتنصرف..

هل وثقتُ فيها؟.. نعم. ولكنني لم أثق في نفسي كفاية لأفهم ما أدركتُه الآن من نظراتها تلك. أي لعنة كنتها بأنانيتي معها، أم هي الحياة ما جعلني على هكذا صورة؟..

أحب أن أجيب لا أدري ولكنني لا أستطيع، فلطالما عرفت الجواب، كان خوفي من ذكرياتي المقيتة ما يبقيني طامعا في المزيد، ولكنها أجبرتني على فتح كتابي وأخذت تلهو بصفحاته، تقلبها، تقرؤها وتعيد قراءتها، حتى إذا انتهت أدخلتني دهاليز مخاوفي وسارت معي فيها، وحين يجمدني الخوف كانت تجرني وتسحبني رغما عني. آه كم حسدتها حين انتصرت عليّ، وكم مقتها حين جعلتني أفضي لها بكل شيء.. لم تستجوبني.. وجدتني أواعدها في منزلها، لم نكن وقتها إلا عشيقين يجمعنا الفراش.

جلسنا في المطبخ، كانت قد أعدت القهوة والحليب، واشترت بعض الحلو. تزيَّنت يومها وهي تحسب أننا تواعدنا للحب، أما أنا فجئتها عرقا بوجه غير حليق، لم تكن تلك عادتي وهي تعلم. أجلستني برفق على كرسي وصبت لي فنجان قهوة وجلست بجانبي

تنتظر أن أتحدث، في حين كنت كلما جمعت جملة في صدري لأقولها تضيع بين حلقي وشفتيّ، فينفرج فمي بلاشيء وأنا أظنني قلت شيئا، ولكنها بحدس المرأة، أو بحدس العشيقة أو الصديقة، كانت تترجم بُكمي بعينين رغم ضيقهما واسعتين وسع السماء، فيبلغ "لا شيئي" مسامعها جملة مفهومة كما كانت في صدري، وما هي إلا لحظات حتى وجدتني أبوح لها وأعترف...

* * *

بدأ كل شيء عام 1979..

حين صحا فجر ميسونيي على صوت صاخب شيع الليل إلى باب نهار جديد، وكان من عادته أن يصحو على أصوات عربات يجرها الخضارون والسماكون في اتجاه السوق، حيث يقضون فيه يوما آخر يطرحونه من حياتهم. كان الصوت قويا بحيث أتصورهم انشغلوا به عما يشغلهم عادة، وتوقفوا برهة لينظروا من أين هو صادر. لا أظنهم قد توقفوا كثيرا، لأنهم لو فعلوا لرأوا سيارة شرطة مركوَنة في أسفل عمارتنا، وأصحابها يطرقون بابنا في انتظار أن يستيقظ أحد. في تلك الساعة كان أبي وأمي يشربان القهوة في مطبخ شبيه بزاوية تبدأ لتنتهي، أنقذ ضيقه اتساع شرفة تجمعه بصالة المعيشة، حيث ترقد أخواتي وجدتاي في جهة وأشقائي في الجهة الأخرى يفصلهم ستار، أما أنا فقد كنت بين إخوتي نائما.

فتح أبي الباب، فأدهشه منظر الشرطي بزيّه الأزرق. تفحص وجهه جيدا قبل أن يسأله عن اسمه ولقبه، كان أبي ساعتها لا يزال في لباس نومه وعيناه لم تنفضا بعد سكرة ليلة أمس، وربما كانت بقية من رائحة خمر تعيده إلى السكر بين لحظة وأخرى. لكن وقوف

الشرطي ببابنا وسؤاله الحازم جعلاه يستفيق ويسوي هندامه. وإذ ذاك تقدم نحوه الشرطي وخبّره بشيء، فتسمّر أبي في مكانه وقد انحسر الدم من وجهه وليس على لسانه إلا "هل أنت متأكد؟". ظل يردد هذه الجملة والشرطي يهز رأسه إيجابا، وحين يئس أبي من رده تقدم منه خطوة وهمس له، فتراجع الشرطي إلى الخلف وقد استلف وجها جديدا بعينين صارمتين وملامح حازمة. قال له بجد: "سيدي هذا أمر لا يقبل التأخير.".

من فوره اتجه أبي نحو المطبخ وقد ترك خلفه شرطيا حازما وبابا مشرّعا ينتظر من يدخل أو يخرج منه.

تعاودني هذه الذكريات وكأنني شهدتُها، رغم أنني كنت ساعتها أغط في النوم. أتكون هبة الموت ما جعلني أعلم بما لا أعلم، أم هي مجرد تخيلات كتبتْها مخيلتي لتملأ الفراغ، ربما يكون شيئا من هذا وبعضا من ذاك، ولكن الأكيد أنني كنت أحب أن أرى أبي حزينا حين هزني ليوقظني، أحب أن أتخيله بوجه لو رأته السعادة لبكت. غير أني في الحقيقة لا أتذكر وجهه حينئذ، فقط جملة جافة خرجت من فيهه لتكون آخر جملة أسمعها منه حتى خرجت من السجن.. "استيقظ، هناك من يطلبك". أيكون قالها مبتسما أم بوجه مكفهر؟، أقالها واستبقى في حلقه غيرها منعتها كبرياؤه من الخروج؟.. لا أذكر شيئا غير أنه قالها وانصرف إلى إخوتي وشقيقاتي يوقظهم. همس لهم بشيء جعلهم ينتفضون نحوي يعانقونني بلهفة، إلا السايح ظل مكانه وانكمش وكأنه عاد للنوم، أما أمي فأخذت تنوح عليّ، تحضنني دون أن تكف عن تقبيلي. كنت مشدوها بما يحدث حولي، حتى لا أدري كيف بلغت باب شقتنا، وكيف تلقّفني الشرطي وأخذني إلى قسم الشرطة. وإلى هناك جاءت أمي وشقيقاتي وإخوتي.

سألني المستجوب:

- هل تعمَّدت قتل فاروق؟

- فارو..ووق؟!..

كان الاسم غريبا، لم أعرفه من قبل، أيكون..؟

إذن، فهكذا كان اسمه. تذكرت وجها مستديرا وجسما أكثر استدارة، حبة بيض تسير بقدمين. اعتدتُ أن أراه في ساحة المدرسة يجلس منفردا، يفتح محفظة جلدية ويخرج منها أكلا وحلوى، يرتدي كل يوم لباسا جديدا، المئزر نظيف، السروال مكوي، الشعر مرتب..

- زميلك في المدرسة، هل تعمدت قتله؟

بقي يسألني وأسأله حتى انقضى ذلك اليوم، واليوم الذي يليه، واليوم الذي يليه، لأجدني مذنبا رغما عني، كيوم حبلت بي أمي وكدت أقتلها.

.. ومثلما زجت بي أمي إلى الحياة، زجوا بي هم إلى السجن.

- هل تعمدت قتل فاروق؟

رنّت كلمة "القتل" في أذني واستمرت دون أن أفهم معناها حتى حين نطق القاضي بالحكم. قال أنني لم أقتله متعمدا وصدّق محامي حين وصف ما فعلته بـ"الخطأ"، ثم أمر أن أحبس سنتين.. سنتان، هكذا قالوا، ولكنني أمضيت فيه ثمانية عشر سنة وخمسة شهور ويومين وثلاث ساعات..

في أول يوم لي هناك، بدا المكان موحشا، وبعد عام أصبح أقل توحشا، حتى أصبح في زحمة السنوات المكان الذي أعيش فيه.

انمحت من رأسي ذكريات الخارج، وبدأت أنسى أسماء أصدقائي ووجوههم، إلا وجهه.. وجه فاروق. كان من الغريب ألا أنساه وأنا الذي كنت أتحاشى النظر إلى وجهه الأنثوي السمين، وإلى قصة شعره الغريبة.

كان وجهه آخر ما تبقى من ذكريات طفولتي، وسؤال المحقق والقاضي وأمي "هل قتلت فاروق؟" يلاحقني من صالة إلى صالة، ومن سنة إلى سنة، حتى خلت أنني تخلصت منها وأنا أخرج من سجن التهم طفولتي كما كان يفعل ذاك السمين القذر بكل ما كان يسقط بين يديه..

"هل تعمدتُ قتل فاروق؟".. لا أدري، ففي العاشرة لا تبدو الأمور كما نراها الآن.. كما أراها الآن. لم يكن فعل "القتل" يعني لي ما يعنيه لي اليوم. لا أذكر أنني ندمت ساعتها، حتى حين أخذتُ أبكي وأنا أرى أمي تنوح وتصرخ، كنت أبكي حزنا على فراقها، أما الندم فلم أعرفه أبدا، حتى بعد كل هذا العمر. ففي النهاية لم أقتل فاروق، لم أكن إلا سببا في وفاته، أما قاتله فكان أي واحد إلا أنا، ربما كانت أمه التي دلّلته إلى درجة أن أصبح لا ذكرا ولا أنثى، وقد يكون أباه الذي لم يعلمه كيف يصير رجلا، وقد يكون هو لأنه لم يحسن الدفاع عن نفسه، وربما كان هؤلاء جميعا، أما أنا فلم أفعل إلا أنني طرحته أرضا وأخذت ما لديه، أما ما حدث لاحقا فلم يكن لي يد فيه، ربما ركلته أيضا، ولعلني بصقته وأنا أنصرف، ولكنني لم أقتله. كان عليهم أن يسجنوا جبنه قبل أن يسجنوني، وكان عليهم أن يحاكموا ضعفه قبل أن يفكروا في محاكمتي.

ومع هذا حوكمت وسجنت. ووقف عقرب الوقت ينتظرني. لم يكن عليه أن ينتظر أكثر من سنتين. قال لي المحامي "سنة واحدة

وتخرج"، بهذا طمأن أمي كذلك، "عليك فقط ألا تثير المشاكل لا مع المحبوسين ولا مع الحراس.. ابق هادئا وأخرجك بعد سنة".

قررت أن أكون وديعا، لا أشتم، لا أسب الدين، لا أتعارك ولا أغضب إذا عايرني أحدهم باسمي. ولو كان بمقدوري لأصبحت "فاروقا" آخر. بالطبع لم أستطع.. حاولت ولم أقدر. ومع هذا كنت صورة له غير مطابقة، حتى جاء ذلك اليوم الذي أرغمني أن أكون أنا.. أن أعود إلى ما كنت عليه رغم صغري.. ابن عاهر كما كان يقول أبي.

كنت وقتها قد قضيت ثمانية أشهر، لا يشعر بي غير الفراش الذي أنام عليه وأكل الخنازير الذي بالكاد يقوِّتني. فضلت ألا أقيم علاقة بأحد، بالطبع لم يكن الأمر سهلا في البداية، فالانعزال والحياد لم يكونا خيارين يطرحان في السجن، ففيه إما أن تكون "مع" أو "على".. صديق أو عدو. منطق السجن سيان في جناح القصر أو البالغين. "السجن لم يخلق للأطفال.. للمجرمين فقط، سواء كانوا ذراري أو شيوخا"، بهذا خطب فينا مدير السجن أول يوم. لم يكذب علينا، فالسجن لا يفرق بين كبير وصغير.. ففيه جميعنا سواء. بدأت رغم نفوري من كل شيء أألف حبسي، فعلى الأقل لم أعد كأول أيامي فيه واقفا بين بين.. بين شوق إلى خارج لم أعد فيه وتقززٍ من مكان أنا فيه. بلغة المثقفين صرت واقعيا إلى أبعد حد، ولكن في حدود يقيني أنني سأخرج من السجن بعد أربعة أشهر، لذلك لم يكن من بأس أن أظهر للحراس وجه الجبان الذي لم أكنه، وأضع للمحبوسين قناع المسالم الراغب دوما في السلام. أعرف أنه لولا جسدي العظيم وملامحي القاسية ووجهي الآيل للقبح لافترِستُ كل يوم. فأخيرا أصبح لصفة "البغل" الذي كان أبي يصفني بها فائدة

ترجا، فأنا لم أسمعه أبدا يتلفظ باسمي. كان كلما كلمني يقول "يا ولد".. "يا حمار"، وحين يفضح بعض شقاوتي ينعتني بالبغل. ولما أفعل ما يتوجب الضرب، وتحول أمي دون ذلك فأفر أينما شاء، يشفي غليله فيها وهو يصيح " والله لولا الملامة لطلقتك وألقيت بهذا اللقيط من البالكون"، وأحيانا يقول "لولا خشية الله لقلت أن حمارا نكحك وأنجبت منه هذا المسخ". وعلى كل، كان هذا أبي، لا أعرف إن أحببته يوما، ولكني موقن أنني لم أكره أبدا. لطالما شعرت أنه كان طيبا، بالطبع لم يفعل معي ما يجعل شعوري يقينا، ولطالما شعرت أنه مشفق علي. خلتُ أنني رأيت ذلك في عينيه أكثر من مرة: يوم أيقظني ليسلمني للشرطة، ويوم وقفت أمام القاضي للمرة الثانية. لم تكن عيناه تجهر بشيء ولكنهما كانتا تسران بفيض من الشفقة. يومها كنت متعبا، فارغا، مصدوما أيضا. لم أعد قادرا على الوقوف. طار حلم الخروج من السجن بعد سنة، كنت أعلم أن عقرب الوقت سينتظر سنينا أخرى، ومع هذا كنت آمل. لا أعرف لمَ، ولكنني أملت أن يفهم القاضي ما اقترفته.

ـ يبدو أن رأفة المحكمة في أول مرة لم تجد معك.

قال القاضي بحزم من نفدت الرحمة من جعبته. كان يحدق فيّ كأنه راغب في خرق جسدي بنظراته القاسية. المسكين ما كان عساه أن يرى؟ لم أعد إلا جسدا بلا روح.. أتنفس.. آكل، أشرب أي شيء، ومع هذا لم أعد حيا. لو أنه بحلق فيَّ مليون عام ما رأى شيئا أبعد من هذا الواقف قدامه يرجو بعض الرحمة في قسوته.

ـ لماذا ترفض أن تحكي لنا ما حدث؟.. نحن نعرف كيف قتلت الحارس ولكن نحب أن نعرف روايتك.

"يعرف؟"، أعجبتني هذه الكلمة. قلت لنفسي كيف له أن يعرف

شـيئا، حتى أنا لا أعرف.. قتلته صحيح ولكني أجهل كل شـيء عدا هذا..

ـ طيـب.. قـل لنـا فقـط كيف خرجت مـن الصالة ووصلت إلى مكتبه؟.. من مصلحتك أن تقول لنا إن كان ثمة شركاء يسروا عليك الأمر..

"شركاء؟!.. أي أحمق هذا.. أكان الأمر يحتاج إلى معونة لأقتله بدبوزه. لم يكن الأمر صعبا.. صدقني كان أيسر مما تتصور". همست لنفسي، فلم أكن قادرا أن أرفع صوتي، وبماذا كنت سأرفعه، ماذا كان عسـاي أن أقول. انتهى الأمر ولم يعد يجدي أن أتحدث، فلا شـيء أكيـد غيـر أننـي قتلته، ولـم يكن ثمة من شـريك ليخرجني من الصالة أو يدخلني المكتب. كان هو من أخرجني.. هو من أدخلني وهو من ترجاني أن أقتله.. لم يترجاني صراحة ولكن ما كان يطلبه مني يشبه في معناه الموت. بالطبع لم أبخل عليه وقتلته، وفي المقابل أعطيتُني أعواما أخرى في السجن.

لـم تنقض سـنة حتـى تاب المحابيس عن معايرتي باسـمي، بل حرفـوه إرضـاء لـي وصـاروا كلمـا نادونـي قالوا "قي قـي". أعجبني الاسم الجديد، ومع هذا لم أنس "قدور"، فقد كان هذا الاسم آخر ما تبقى لي من الخارج. وبمرور الوقت أبدعوا لي كنية جديدة لأصبح "الساسي"، لم أفهم في البداية معناها، حتى أدركت أنها تعني القائد، فأنا من كان يسوس صالة القُصَّر عن بكرة أبيها، فبعد مقتل الحارس ومـا رأوه منـي فـي معاندة الحراس ومقارعة المحابيس ممن هم أكبر مني اعترفوا بزعامتي. لم أكن آبه بأحد، كنت آخد حقي وغير حقي بيـدي، ولا يهمنـي مـن يكـون الخصم: حارس، محبوس، مسـجون، ضابط.. لا يهم، ألطم أولا ثم أسأل. لم أُبق للحراس وللعاملين في

السجن من حل إلا محاولة مداواتي بالحبس الانفرادي، مع أنه كان ممنوعا على القصر. في البداية كانوا يضعوني فيه يوما أو يومين، ثم امتدت فترة حجزي إلى أسابيع وأشهر. ولكنهم مع مرور الوقت أدركوا أنني أصير أكثر شراسة كلما حجزت فيه. فكر بعض الضباط وطلبوا الإذن من المدير أن أعامل كأي بالغ فقبل. كانوا يحبسونني في زنزانة ضيقة لا تسمح بالاستلقاء، بعد أنِ ينزعون منها المرحاض ويمنعون عني الأكل باليومين والثلاثة، وأحيانا يقيدون يدي من خلف، ولكنهم كلما عادوا، وجدوني جالسا وسط بولي وغوطي غير آبه لا بالقرافة التي أحدثتها ولا بالرائحة التي تكاد تفسد هواء السجن. كان صمتي أكثر ما يغيظهم، فلم أكن أفعل غير الابتسام والتحديق فيهم. فإذا حاولوا تنظيف المكان ورشي بالماء، أتعرى كما ولدتني أمي.

أضحك.. أقهقه.. يصرخون "هذا مجنون، لا ينفع معه شيء"، ويخرجونني وأمكث في الصالة يوما أو يومين، ثم أتعمد اقتراف أي زبلة وأعود للحجز، حتى أنني مرة قضمت أذن حارس حتى قطعت جزءا منها.

بقيت على حالي هذه سنتين. لا أعرف لمَ كنت أفعل كل ذلك، ولكنني كنت أشعر في كل مرة أدخل الحبس الانفرادي بالراحة. أجدني مجبرا على التأمل، تأمل ما وصلت إليه، لم يكن بوسعي طبعا في تلك السن أن أفهم ما حدث لي، ولكنني كنت أحاول أن أجد طريقة للفرار. لا من السجن، فلم يكن ثمة من طريقة، ولكن من نفسي، مما أصبحت عليه. كان موت الحارس الذي قتلته أكثر ما يشغل بالي. كنت أوبخ نفسي وأحاول استرجاع ما حدث، فلربما أجد ما يقنعني أن ما فعلته كان صوابا. كنت الوحيد القادر على الحكم على ما اقترفته.. لا أحد عرف حقيقة ما جرى ليلتها. ولهذا اليوم ما

زلت أسـألُني: أحقا لم أملك سـاعتها أي خيار؟.. لا أعرف.. أقسـم أنني لا أعرف.

لم أحتج بعدها لأضرب أو أتعارك، لم أكن أحتاج حتى أن أسأل فأجاب. صرت أكثر المسـاجين مهابة، حتى بالنسـبة لجناح البالغين، فلقد كانوا يتلقفون أخباري كما نتلقف أخبار النجوم. سبقتني سيرتي إليهم، حتى أنني حين بلغت الثامنة عشـر وتقرر نقلي إلى جناحهم، لـم أكـن أحتـاج لأعرّفهـم بي، فقد عرفني جميعهـم، وجميعهم كانوا يخشونني.. وجميعهم يخشون أن ينادونني قدور..

هامشان

هامش أول..

-1-

عدت إلى حيث خلتني لن أعود.

ربما أقسمت قبل ثلاثين عاما أنني حين أغادر "بن يعقوب" سأتركها في كراسة الذكريات على آخر صفحة.. ربما أقسمت أنني سأحرق صفحات الجوع والعري والتيه لئلا يلاحقني ظلها، ولكنني عدت إليها وليس بين يديّ ما يمنع الذكريات من نهشي غير مهمة تحجّجت بها كي أعود. أهو الشوق أم الاضطرار ما أعادني إلى أرض نفيتها من قلبي بغضا وكرها وازدراء.. حتما هو الاضطرار، فلا شوق يحمل حيث لا ينبت الحلم وتزهر الآمال.

ولأنني كنت مضطرا، قلت لنفسي "يوم واحد فيها لن يجعلني أحنث بقسمي"، فما عودتي عودة، ما دمت لن أدخلها إلا كما خرجت منها منذ ثلاثين عاما، مرارة في الفم وفي القلب انقباض، حتى ذكرياتي المقيتة لن تملك الوقت لمحاصرتي، وإن حاصرتني فليس بينها ما يجعلني أحن إلى أرض لم أحبها يوما لأحبها الآن، ثم ما الذي بقي لي فيها لأضعف أو أستسلم للماضي الذي لم

أملـك فيـه إلا اسـما حملتـه معي يوم رحلت، وتمنيـت لو لـم أحمله لئلا أحمل انتسابي لأرض الملح تلك، ولكن لم يكن ثمة من خيار غير ما كان، وكان خياري الوحيد، حين واتت الفرصة، أن أرحل ولا أعود، واخترت الرحيل، تاركا والدين طعنا في السـن وإخوة تشـتتوا بعد موتهما الذي لم أحضره خوفا أن تشدني "بن يعقوب" إليها من جديـد وتعيدنـي إلـى الجحيم، أو حبا لوالدي ورأفة بهما أن يعرفا ما صـرت عليـه مـن خيبـة خشـيت أن تقتلهما مرة أخـرى، فعلى عكس ما أوهمتهما لم أتم دراسـتي في الجامعة ولم أصبح شـيئا يذكر، كل ما صرته ما أنا عليه اليوم، مجرد سـائق تاكسـي يسـكن شـقة مؤجرة، ومع هذا أنا أفضل حالا مما لو بقيت هناك.. على الأقل عزائي أنني حاولت.

ثلاثـون عامـا ولا شـيء فـي "بن يعقوب" تغيـر، مازالت منازل الطـوب مـن طوب، ومازالت الوجوه السـوداء سـوداء، حتى الأرض التـي لـم تنبـت شـيئا غيـر التراب، ظلـت على حالهـا، لا الزفت ولا الإسـمنت سـتراها، بقيت كعهدي بها منسـية، تتلذذ في نكران ذاتها، لا رغبة فيها للحياة فتبعثها من رمادها، ولا مقتا يشـدها إلى الموت فتندثر.. هي هي، كما تركتها منذ ثلاثين عاما، وكأنها سقطت في ثقب أسود حال ما بينها وبين حياة ترجوها أو اندثار ترغب فيه.

مـن كان يتصـور أن المقادير تعيدني إلى هنا. "سـألت نفسـي". ولكنهـا كمـا قلـت المقادير ما حملتني لأجلس إلى السـايح، جاري، وأخبره أنني من "بن يعقوب". لم أكد أقول "بن يعقوب" حتى تغير وجهـه، وصـرت أرانـي في عينيه أهم حتى من عينيه... "بن يعقوب.. أتقصد تلك التي في الجلفة؟". قال وفي عينيه وقفت عشرات الأسئلة فـي طابـور تنتظـر دورهـا. لـم يكن أمامها إلا أن أقول "نعم" لتكسـر

أغلالها وتسقي رغبته في الجواب..

ابتسمت، فلم أكن أتخيل أن رجلا عاصميا يمكن له أن يعرف "آخـر الدنيـا"، هنـاك حيث "لا هناك" أكثـر الجمل تعريفا بها، حيث النهاية ما يخيط به الأمل أسماله، فيولد ليموت.

"هي تلك". قلت وأنا أنظرني في حدقتيه أملؤهما وحدي، ربما كانت تلك أول مرة أملأ فيها أي شـيء، ولعل هذا ما جعلني أعود، فالسايح لم يكن جارا فحسب، كان أول الأصدقاء في غربة تأبى أن تنتهي إلا عند غربة أكبر لا تعرف من الفعل إلا البداية.

كان مريضا وقتها: شحب وجهه، هزل، خفت صوته وانتهى إلى هيـكل بالـكاد تحبـي فيـه الذكـرى، ولكنـه لم يكن يأبـه أو يهتم بغير حديث "بن يعقوب"، حتى ألمه الذي يلم به بين الحين والحين كان يخمده بنكاته حتى بالكاد يطل من عينيه، ورغم ذلك كان يطل وكنت أراه يمزق ما تبقى منه، أو ما أبقى عليه مرض ليتني لم أعرف ما هو، فعلى الأقل كنت سأبقى على سجيتي معه وأدعو له بالشفاء، وإن لم أدع كنت سأتمناه له، ولكنه أخبرني..

ألأنـني علمـت بموتـه الأكيد قبلـت العودة إلى بـن يعقوب، أم تـراه لـم يخبرنـي إلا لأعود إليها، ربمـا كان الأمر هكذا، فحتى حبي له ما كان ليجعلني أعود وأدخل ماض خلته انمحى بيد الغربة، ولكن على ما يبدو لم تستطع المدينة أن تبتلع القروي فيّ. حتى الكره لم يعـد قـادرا علـى سـجن ذاكرتي.. أتذكر كل شـيء وكأننـي لم أرحل إلا البارحـة، ربمـا لأن لا شـيء تغيـر، وربما لأننـي راغب أن أتخيل ألا شـيء تغير، فرغم كرهي لهذا المكان أشـعر أن شـيئا ما عاد إلى داخلـي، أكاد أقسـم أنـه ملأنـي وأنا الذي عشـت ثلاثين عاما يملؤني الفـراغ، فلطالمـا شـعرت أن في صـدري فراغا ليس يملؤه الأزل، أما

الآن فلا أشعر في داخلي إلا بالهوة التي حكمت على نفسي أن أسقط فيها، حتى رائحتي عادت، أشمني من جديد.. يا ألله أما زلت أحمل رائحة؟!. حسبت أنني فقدتها وأنا أدخل العاصمة ولا حلم لي إلا أن أنبت لي جذرا فيها، ولكنني سرعان ما أدركت خبلي، ثم ما لبثت أن قبلت قدري أن أعيش بلا جذر ولا رائحة، ولكنني وأنا أدخل بن يعقوب عاودتني رائحتي. كانت ككل شيء في بن يعقوب.. عصية على التغير.

خشيت أن أستحلي الأمر فتوقفت عن الملاحظة، لم يبق في العمر قدر الذي مضى، ولا ضير أن أبقى بلا رائحة تميزني، فمهما يكن، لن ترضى المدينة أن ألجها برائحة لا تميزها، ولا ضير أن أُبقى على الفراغ بداخلي، ما دمت أدمنت تيهي، فأنا في آخر المطاف مجرد خيال لا انعكاس له، فمنذ أن تجاوزت حلمي في أن أكون غير ما أنا عليه اليوم، لم يعد يهم على أي درب سأمشي، فكل الدروب تؤدي إليّ، ولست أُأدي إلا إلى الهوة التي في داخلي.. ثم ما معنى أن أملك جذرا وأنا بلا ولد ولا زوجة، خير لي أن أظل هكذا.. مجرد سائق تاكسي يسكن شقة مؤجرة.

أمَّا وقد عدت فلا مناص من تنفيذ المهمة.

للحظة بدا الأمر سهلا، فقد دخلت بن يعقوب التاسعة صبحا، لم يكن في أزقتها الترابية غير الأطفال ممن لا يعرفونني، ولم يكن علي إلا أن أسأل عن مكان أحد "الأحواش" هناك. سلمني مفتاحه السايح وطلب مني أن أحضر له ظرفا تركه داخله. لم يشأ أن يطلعني على شيء آخر: لا على كيف امتلك مفتاح سكن في مكان لا صلة له به، ولا عن هذا الظرف الذي طلب مني عدم فتحه.

لم يستغرق الأمر ربع الساعة. خرجت من الحوش أتأبط الظرف

وليس لي من رجاء إلا أن أبلغ سيارتي التي ركنتها على بعد زقاقين بعد أن استعصى عليّ المرور بها بين الأزقة الضيقة. لم أشأ أن أهرول لئلا يلحظني أحد، سرت بخطى متثاقلة ربما.. ولكنها واسعة. حاولت ألا أشيح بنظري نحو أي اتجاه خشية أن يتقاطع بمن عرفني ذات يوم، فلم يكن الأمر يحتمل أي مفاجأة.. خطوتان وينتهي الخوف.. خطوتان وأخرج من جحيم الخشية إلى حيث لا ذاكرة تحاصرني ولا ماض يتربص بي.. هكذا منّيت نفسي.. هكذا حدثتها، وبين حديثي ومناي اخترق صوت مسامعي، فمسخت خطوتاي إلى أميال، وعوض أن أنأى عن الخوف غرقت فيه.

"يا إلهي أيكون..".. لم أشأ أن أجيب..

ثلاثون عاما.. ألم تكن كافية ليموت وقد خلّفته في الستّين..

أتأبى المشيئة أن تعمل فيه مديتها كغيره، أم تراها أمهلته لأنها أرادتنا أن نلتقي؟.. هذا عهدي بها، هكذا عرفتها دائما.. سادية حتى النخاع.

"وليكن.."، صرخ حمقي في داخلي، والتفت إلى حيث صدر الصوت، وما كدت حتى توارت شجاعتي. تناثرت وأنا أراه. على وجهه حرثت ابتسامة قروي جلف لن تثمر في عيني شيئا. لم أكن وأنا أنظره أراه، فقد كان خوفي ما أرى.. "أهذا هو شكله.. أهكذا وجهه الكريه". لم يكن ما رأيته جميلا، ولكن لم يكن أمامي من خيار إلا أن أواجهه.. أقصد أن أواجههما: هذا الشيخ الخرف، وخوفي المتوحِّد فيه.

- "كيف أحوالك يا ولدي؟". قال بصوت مبحوح عبث بأوتاره الزمن، حتى كأنه حين بلغ أذنيّ، جاهد ليدخلهما جملة واحدة بالكاد سمعتها.

ـ "بخير". قلت وتحاملت على نفسي أقبّل على رأسه. تلك كانت عادتنا في إبداء الاحترام. للحظة بدا الأمر غريبا ألا أنسى عادات انصرفت عنها، حسبتها انمحت من سبورتي، لأدرك أنها نقشت في روحي للأبد.

وقبل أن أجد ما أضيفه سألني عن غرض الزيارة. كان كلما افترض شيئا أجيبه نافيا، فلم أكن هنا لتفقد بيتنا القديم، ولا لزيارة أعمامي ولا أولادهم، لم آت لأقبض إيجار أرض لم تزرع يوما ولا لأدفن قريبا مات..

حين يئس أو حين نفذت كل افتراضاته أخبرته بسبب زيارتي، وما كدت أذكر اسم السايح حتى تغير وجهه وتراجع إلى الخلف وفي عينيه ما يشبه الاحتقار، فقد ضاقتا وصرت على حافتيهما خيالا لا خيال له. ثم صمت وقد أشاح بنظره عني، لأفهم أخيرا أنه لم يعد راغبا في محادثتي، فنظرت حيث كانت سيارتي مركونة واتجهت نحوها بعد أن عادت خطوتاي خطوتين، وانحسرت أميال خوفي بصمته.

وما كدت أبتعد عن بن يعقوب حتى تلاشت رائحتي من جديد، قُطعتْ جذري وأُغلِق الكتاب كأنه لم ينفتح. أما الشيخ الذي خلفته ورائي تصلب في مكانه صنما شكّله صمت امتطى حيرتي، حتى إذا لم تعد بن يعقوب إلا ذكرى على عتبة المدينة الغول، تغلغل في إسمنتها وخراسانها ليحاصرني.. لم يعد صمته صمتا، ولا نظرات احتقاره رضيت أن تظل مجرد صورة في ذاكرتي.

لم أعد إلى بن يعقوب بعدها، ولم أسأل السايح عن الشيخ ولا عن نظراته ولا عن الظرف الذي حملته معي. بقيت راضيا على جُبني، وحسبت أنني عدت كما كنت قبل رحلتي تلك: رجلا بلا

ذاكرة، بلا جذر، بلا رائحة، ومع موت السايح خلت أن أسئلتي التي لم أسألها وئدت معه، حتى قرأت ذلك الخبر في الجريدة، خبر موت "قدور" في تندوف بعد أن رجموه.

كان خبرا مقتضبا في آخر صفحات الجريدة "مقتل شاب رجم حتى الموت".. "توفي ليلة أمس بمنظقة الرابوني بولاية تندوف، شاب في الأربعينات من العمر متأثرا بجروح أصيب بها قبل يومين في بلدية بن يعقوب بولاية الجلفة، وحسب مصدر أمني، فقد قام بعض سكان بن يعقوب برجم الضحية لأسباب غير معروفة، محدثين له جروحا جسيمة، رفض الضحية على إثرها التوجه إلى أي مصلحة استشفاء، مفضلا السفر إلى تندوف ومنها إلى الرابوني بصحبة فتاة هي قيد التحقيق".. هاتفت صديقا لي بتندوق كنت على صلة بأبيه أيام خدمتي العسكرية، فعرفت أن الشاب هو قدور وأن الفتاة ليست سوى "عاهرة" السايح. أعرفها فأنا من كان يسوق بالسايح وأنا من كان يوصله إليها ويوصلها إليه.

أسبوع انقضى على وفاة قدور.. لم تصل جثته وعادت نوى بمفردها. أخبرتني أنها قضت ثلاثة أيام في ذمة التحقيق، وحين تأكدوا أن لا يد لها في موت قدور أطلقوا سراحها، بعد أن صادروا كل ما كان في المنزل الذي استأجراه في الرابوني. أما جثة قدور فقد أخذوها إلى المشرحة ومن هناك لا أحد يدري. ترددتُ لأسألها بعد لَأَي: "وماذا عن بن يعقوب؟.. ما الذي حدث؟.. لماذا رجموا قدور؟..". كنت أسأل، أتبع السؤال بالسؤال، وكأني خشيت أن يعاود جرأتي جبني فيقبرها. لا أعلم لمَ كنت أحدس أن لنظرات الشيخ التي جلدني بها في آخر زياراتي لبن يعقوب علاقة برجم قدور، بموت السايح، بـ...، أخشى أن أقولها، بهذا الشبح، بالظل

الذي صرته وبالظرف الذي حملته معي من هناك. أكانت فيه مراسيم موتهما؟، أحملت فيه حين حملته لعنة لن تكتفي بما فرضته علي من تيه، لتجعل العالم الذي عرفناه مرعى لتيه أكبر وأعظم مما قد نتصور؟!.. حتى نوى لم تنج منه، فقدت معالمها فلم تعد تلك التي عرفتها. ربما كانت مثلي بلا جذر ولا رائحة، ولكني صرت أراها مثلي أيضا.. شبحا لا ظل له.

لم تجبني واكتفت بهز كتفيها وبابتسامة أضافت لأسئلتي مليون سؤال، وكان آخرها "ما الذي تخفيه نوى؟".

-2-

ربما سـألتُني أولا "ما الذي تخفيه؟"، ولكن بعد انقضاء أربعة أشـهر سـألتُني من جديد "ما الذي أخفاها؟"، فلم تهاتفني نوى منذ عادت من الرابوني، وهي التي لم تعتد أن تستغني عن خدماتي. لن أنكـر أننـي فكـرت أنهـا تابت من عمـل الليل، ولكنني سـخرت مما انتهيـت إليـه وأنـا أسـتذكر طريقة عيشـها ورفاء ما ألفتـه، والأهم ألا سـبيل آخر يمكن لها أن تسـير عليه لتقتات.. هي الخبزة لا أقل ولا أكثر، ولولا مهنتها تلك لقلت أنها امرأة محترمة، على الأقل لم يكن عهرها في حياتها أكثر من مهنة تأكل منها.

تحاملت على نفسي وزرتها بمنزلها بعد أن يئست من مهاتفتها وهي لا ترد، كانت تملك شـقة في حي بيردو، في عمارة تقع تحت السُـلَّم الموصل لشـارع تيلملي. عرفت عنوانها من كثرة ما أوصلت إليه السـايح كلما عاد من سـفرياته الغريبة إلى الصحراء، علمت فيما بعد أن الرابوني كانت واحدة من محطاته.

صعـدت خمسـة طوابـق وطرقـت البـاب. بدا ألا أحـد كان في الشقة.. الأضواء مطفأة، لا ضجيج ولا صوت تلفاز أو راديو. كانت الثامنة مسـاء فيما أذكر، فضلت هذا الوقت حتى أضمن وجودها في شـقتها، ففي مثل هذه السـاعة تبدأ في تحضير نفسـها للعمل، وعادة لا تنتهي تحضيراتها إلا في التاسعة أو العاشرة. أعرف عاداتها لأنني صرت سـائقها بعدما اطمأنت لي وأمّنها السـايح مني. قال لها "هذا

أخـوك، وأعـدك أنـه لـن يفكر أبـدا إلا أن يكون أخاك"، ومع هذا لن أنكـر أننـي تمنيـت أحيانـا، بيني وبينـي، أن أكون غيـر أخيها، ولكني كنـت، وقتهـا، قـد فصلت بين العمل والحب، كمـا فصلت قبلها بين الحب والفراش.

طرقت مرة.. مرتين، ولدقيقة أو دقيقتين بقيت آمل في وجودها بالشـقة، وحين يئسـت فتُح باب الشـقة المقابلة وخرجت منها امرأة تشبه الرجال، أو رجل يشبه النساء، فلم يكن الفارق ظاهرا ولا حتى مهما بالنسـبة لي، وأنا لا أحسـن التفريق بين الجنسـين، حتى أني لم أعلـم أبـدا إلـى أيهمـا أميل أو لماذا أحب كليهما. كان السـايح يقول لـي "لا جنـس فـي الجنس" فأطمئن، ثم يعاودني الشـك في كل مرة أضاجـع فيهـا رجلا وأسـأل السـايح مرة أخـرى فيطمئنني من جديد. لا أذكـر أنـه حكـم علـيّ أو فكر في الحكم عليّ، ولم أفكر أبدا حين أكون معه أنني غير سوي، حتى في المرة التي اشتهيته فيها وأخبرته لم يغضب ولـم يفارقني بسببها. قال لي مازحا "تحول إلى امرأة وأمنحك نفسي". وكان بالفعل يحب النساء، اسألوني فأنا سائقه.. أقصد كنت سائقه، وكانت نوى تعلم ذلك، بل وتعرف بعضهن، ورغم ذلك كانت تحبه.

"أنـت بوعـلام؟". سـألت وهـززت رأسـي أي نعم. ثم شـرّعت البـاب فبانـت بكامـل جسـدها، وكأنهـا كانت تحـاول أن تقول، دون أن تـدري، "إننـي امـرأة"، وكانـت بالفعل امـرأة، فمثلي لا يخطئ، لا عملي ولا شـهوتي يسـمحان لي بالخطأ، كانت امرأة تشـبه الرجال. قالت لتتأكد "بوعلام صاحب السـايح؟". لـم تقل "بوعلام الشـوفور" أو "بوعـلام عبـاس"، قالـت فقـط "بوعـلام صاحـب السـايح"، ربما لأنني لـم أكن بالنسـبة إليها أكثر أو أقل من صديق السـايح. ولـم أكد

أجيب "نعم" حتى دخلت شقتها تاركة الباب على حاله، ثم لم تلبث أن خرجت وفي يدها ظرف كبير، ما كدت أراه حتى عرفته.. لقد كان الظرف الذي حملته من بن يعقوب. قالت وهي تُسلمنيه "هذه أمانة تركتها لك نوى، تقول لك أنها باعت شقتها ولن تعود"، ثم انسحبت إلى بيتها وعلى شفتي تدلى سؤال لا أظنها سمعته وهي تغلق بابها، لأجدني وسؤالي المتدلي نازلين سُلّما لم أكن لأفكر أن آخره الجحيم.

لم أقض في طريقي إلى بيتي أكثر من عشرين دقيقة، كانت الطريق إلى باش جراح سهلة على غير عادتها. ركنت السيارة قبل حتى أن أشتري لي العشاء كعادتي. فلم يكن يهم إلا أن أنفرد بنفسي وأفتح الظرف.

ظرف صغير.. مجموعة أوراق مرقونة.. قصاصات أوراق مكتوبة بأقلام مختلفة.. صفحات قليلة، حوالي عشر، لمخطوطة قديمة، تآكلت أطراف بعضها.

فتحت الظرف الصغير فوجدت بداخله رسالة بخط يد نوى.. قرأت:

"عزيزي بوعلام

إذا كنت تقرأ الرسالة فقد علمت أنني بعت شقتي وغادرت العاصمة، وتكون قد حصلت على مخطوطة الكتاب الذي كتبه قدور شقيق السايح قبيل وفاته في تندوف، ولثقتي فيك سأحكي لك قصة هذا الكتاب وقصة السايح ومن بعده قدور، سأحكي لك كيف أصبحنا، أنا وأنت وصديقانا، رسل حقيقة لم نكن نظن أن لنا دورا في ظهورها، ولكنها المقادير أو الصدف ما جعلتنا نجتمع على الحق كما اجتمعنا سابقا على الباطل.

عزيزي بوعلام

لقد حاولت أن أنشر هذا الكتاب في الجزائر، ولكن لا دار نشر قبلت به، وفي كل مرة وبعد أن يعجبهم ويهمون بنشره، يفاجئونني بعدم قدرتهم على نشر الكتاب، وفي كل مرة يتعللون بعلل واهية، وفي كل مرة يقولون لي أنهم أضاعوا نسخة الكتاب وفي ظنهم أنها النسخة الوحيدة، فقد احتطت لذلك وصورت منه عشرات النسخ، إحداها معك، ولولا حرصي هذا لضيعته. لم يكن قدور مخطئا حين سألني أن أنسخه وأحتفظ بالنسخة الأصلية في مكان لا يعرفه سواي، أقصد النسخة التي كتبها بخط يده. فقد علمت أنك أنت من أحضر للسايح قبل وفاته مادة الكتاب الذي حفظها في بن يعقوب في المنزل القديم للولي الصالح قويدر بن عبد الله. كما كنت أنت من عرّفه على حبوب ولد سليمة الذي ساعد السايح على نقل جل موجوداته إلى الرابوني ومن هناك نقلها قدور معه إلى أماكن أخرى أقسمت ألا أبوح بها، ولعلك حين تنتهي من قراءة الكتاب ستدرك لماذا كل هذا التكتم، تماما كما أدركت أنا سبب اختفاء جثة قدور ومراقبتهم لي منذ عدت إلى العاصمة، لهذا لم أحاول الاتصال بك خوفا عليك، وفضلت أن أترك لك نسخة من مخطوطة الكتاب وهذه الرسالة التي أشرح لك فيها ما حدث. بالطبع لن يمكنني التفصيل في كل شيء ولكن على الأقل ستعلم كيف مات قدور وسبب رجمه، قبل هذا عليك أن تفهم أن في وجود المخطوطة لديك خطر يهدد حياتك، فإن لم ترغب في المجازفة لا تقرأها وأحرقها وعش حياتك وكأنك لم تعرف ثلاثتنا: أنا، السايح وقدور. أما إذا قدرت أن الأمر أهم من الموت والحياة، فحاول أن تجد لها ناشرا أيا كان، فمن المهم أن يعرف الناس بوجودها بعد أن حجبت عنهم الحقيقة كل تلك

القرون، وأنا بدوري سأحاول نشرها في الخارج بعد أن بعت منزلي وقررت السفر، ولكن قبل هذا سأحاول مع أحد كتاب الرواية وعدني أن يساعدني إن وجد الأمر مهما، وأنا بدوري وعدته أن أفعل كل ما يلزم لتمويل عمله.

سأبدأ من حيث يهمك الأمر، من يوم عاد السايح من رحلته الأخيرة وهو يعلم أنه أصيب بـ...".

توقفتُ هنا. لم أشأ أن أتم قراءة الرسالة. شعرت أن ثمة ما يخيف. وللحظة شجعني جُبني أن أمزق الرسالة والمخطوطة وأستمر في حياتي من حيث تركتها، ولكنني وأنا أصارع ما تبقى من أسئلة بداخلي ألقيت بتلك الأوراق من غير أن أمزقها.. أحرقت الرسالة وخرجت من الغرفة إلى الرواق، ذرعته لا أدري كم من مرة، ولا كم من الوقت بقيت على ترددي.

هامش ثاني..

-1-

لا تذكر "العيون"[1] ولا أيامنا بها، لم تكن لنا وطنا لتصيره اليوم.

كان يقول لي أبي وعيناه على المصحف وكأنه لم يكن يحدثني. لم أجرأ على مناقشته، ولم أكن لأناقشه حول وطن بقدر ما نأينا عنه نأى. فقد عشنا كغيرنا حلم الحرية، ولأجل هذا الحلم قبلنا أن نُحشر في خيم أسميناها حبا أو شوقا بأسماء مدننا التي لم أزرها، وحده أبي من زارها في شبابه، حتى ظهر لنا أننا لم نعد إلا رهائن طمع دولة لا تأبه باستقلالنا أو بموتنا، ودولة تحاول جاهدة أن تمحو ماضينا لنصير لها خزانة تنهب منها ما تحب، ونظام متآمر، ظاهره الرغبة في استقلالنا وسره أن نبقى كما نحن، شعب شتات وحسب.

بالطبع لا أذكر من حياتنا إلا السنوات التي قضيناها في مخيم السمارة. حتى تلك السنوات حظر أبي أن نذكرها في حضرته. كان يقول لنا، لي وأمي، ما دمنا قررنا الرحيل فلا أقل من أن نلقي بذكرياتنا في المزبلة. لم أوافقه وما كنت لأوافقه لو لم يَتكشَّف لي إرثي الحقيقي، وما كنت لأعرف هذا الإرث لو لم يمت. ولكن حتى ذلك الحين كان أبي بالنسبة لي رجلا متنكرا لوطنه.

لم نقض في السمارة إلا خمسة أعوام، تركناها بعد موت جدي،

(1) مدينة في الصحراء الغربية.

والد أبي، لنستقر في تندوف. لم أكن أعلم قبلها أنه كان لنا فيها منزل. ورغم غضبي من قرار أبي بالرحيل سعدت أن أسكن أخيرا منزلا حقيقيا، فلم يكن ذاك الذي قضينا فيه أعواما في السمارة إلا كوخ طين بناه أبي كيفما شاء، فلم يكن راغبا أن نعيش في خيمة كمعظم الصحراويين. وعلى عكس منزلنا في السمارة، كانت دار تندوف واسعة من خمس غرف وحمام ومطبخ، تطل على حوش أرضيته من الإسمنت، يجري في حنفياته الماء معظم الأيام، وكانت النوافذ تتوسط الحيطان على عكس منزلنا في السمارة، حيث جعل لنا أبي نوافذ في أسفل حيطان المنزل المكون من غرفة واحدة، تسمح بدخول الهواء البارد دون أن تكون منفذا لأشعة الشمس، أما الحمام فلم نملك واحدا قط، فكنا نقضي حاجاتنا في الخلاء، وكانت أمي إذا أرادت الطبخ تأمرني وأبي بالخروج إلى حين تنتهي، فقد كانت تضع موقدها الزيتي وسط الدار وتطبخ عليه، بعدما تكون قد رفعت الفرش والزرابي. كان بيتنا في تندوف شبيها بتلك البيوت التي كنت أراها في الرابوني كلما أخذني أبي إلى هناك، وكنت فهمت من بعض الفرنسيين من المتعاطفين مع القضية الصحراوية، والذين يزورون المنطقة بين الحين والحين، أنها سميت الرابوني لكثرة مائها، فسماها أول المعمرين الفرنسيين "روبينييه" بمعنى الحنفية، ثم حرفتها الألسن حتى صارت رابوني.

كان أبي يزورها مرتين في السنة، يلتقي فيها برجال يأتون من كل صوب. لم يكن أحد يفهم سبب لقائهم، ولا يعرف غايات تلك اللقاءات التي يبدؤونها ويختمونها بإنشاد قصيد غريب لم أقرأه قبلا في أي كتاب، ولكثرة ما سمعته حفظته، فقد كان أبي كلما ذهب للاجتماع بالرجال الضيوف يأمرني أن أبقى قريبا، دون أن أحاول حضور حلقاتهم ولا صلاتهم التي لم تكن تشبه الصلاة التي اعتدنا

عليها، رغم ذلك ما كنت لأسأل أبي عن أموره التعبدية،

فلم أشك أبدا في إسلامه وهو المواظب على كل صلاة وعبادة، حتى أنه كثيرا ما ضربني لمجرد تكاسلي على صلاة النوافل.

كانوا كلما التقوا يتعانقون ويقبلون جباه بعضهم، وما أن ينتهوا يَتَسَرَّوْن بكلام لا هو بالعربية ولا حتى الحسينية لهجتنا، فإذا بأكبرهم يختار أقلهم سنا ومهابة ويجعلونه وسط حلقة يشكلونها حوله، فيجلس وهم حوله واقفون، ويبدأ بالإنشاد:

قُدِّست يا هذا الذي في خاطري   أفلا تعود إلى فقير كافر

فلقد سألت الله فيك مشفعا   أن تبقى ما يبقى الهوى في خاطري

فيرددون بعده ما أنشد في صوت واحد، حتى إذا انتهوا تقدم آخر ينشد منضما إلى من هو في مركز الحلقة ويقرأ بيتين آخرين:

فالناس قد حنوا إليك وقبلهم   حنت خلائق لا يعدّها ناظري

فإلامَ بينك والفؤاد متيم   وعلام رفضك للقريب الناصر

ويستمرون في الإنشاد على هذا النحو حتى يجتمعون في زحمة وسط الحلقة، وقد قرؤوا في إنشادهم مائة بيت من "المبعثية"، عنوان قصيدهم، حيث كانوا خمسين رجلا، كل واحد منهم ينشد بيتين منها، حتى إذا تمركزوا وسط الحلقة، أعادوا الإنشاد لكل القصيد بصوت واحد وحنجرة واحدة.

وكانوا إذا قاموا للصلاة لا يركعون ولا يسجدون أبدا، وكل صلاتهم يصلونها جهرا يختارون فيها طوال السور، فإذا كان اليوم الخمسون من لقائهم، يفعلون ما فعلوه أول يوم، ولكن فيه يختار صغيرهم أكبرهم ليكون وسط الحلقة، وإذا انتهوا من إنشادهم لا يعيدون القصيد مجتمعين كأول مرة، بل يصطفون بلا إمام ويقيمون

الصلاة التي ليس فيها إلا القراءة دون سجود أو ركوع، يقرؤون فيها الفاتحة ويختمونها بالتصديق، ثم يبسملون ويقرؤون البقرة ويختمونها بالتصديق، ثم يتعوذون ويقرؤون شيئا لا هو قرآن ولا شعر ولا أي شيء نعرفه، وكل قراءاتهم تكون جهرا وبصوت واحد، حتى إذا انتهوا منها جميعا سلموا يمينا وشمالا، وقاموا يقبلون جباه بعضهم وكل واحد يدعو لصاحبه إذا قبّله "جعله الله فيك"، فيدعو له صاحبه بدوره "بعثه الله فيك". وحين ينتهون من شعائرهم تلك يقيمون الولائم عشرة أيام، يعودون فيها إلى ما نعرفه من صلاة وصيام وقيام ليل.

في البداية، كانت هذه الطقوس تستهويني، ثم أصبحت تضج مضجعي، فلم أكن أرى أن لها علاقة بالإسلام الذي علَّمنيه أبي، ولولا ثقتي بوالدي لشككت في دينه، لذلك حاولت ألا يعنيني من تلك الطقوس إلا السياحة التي جعلتني أتعلم لغات غير الحسينية، وأرى وجوها غير الوجوه المطيّنة التي اعتدت عليها في السمارة..

لم يكن أبي يعمل في شيء، ومع هذا لم نكن لنحتاج شيئا في حياته. لم أعرف أبدا من أين كان المال يأتيه ولم أجرؤ أبدا على سؤاله. وكما أذكر فقد كان جدي مثله في ذلك، إلا أنه قبيل وفاته بسنتين، وكنت في العشرين من العمر، وجد لي عملا في الولاية، لأنتقل بعدها للعمل في "المينورسو". وفيها عملت شهرا واحدا في مصلحة إثبات الهويات الصحراوية، وعندما اكتشفوا موهبتي في معرفة الصحراء وظفوني سائقا. لم يكن العمل مهما بالنسبة لي، فلم أشعر قبله بحاجتي إلى المال، ولكنه أضحى كذلك بعد وفاة والدي، فقد كنت وحيده ووحيد أمي التي بقيت أعيلها حتى توفيت هي الأخرى أشهرا بعده.

برحيلهما فكرت أن أعود إلى "العيون" أو على الأقل إلى السمارة، ولكن الرفاء الذي ألفته في تندوف حال بيني وبين الفكرة، فعدلت عنها حتى يوم انتدبتني المينورسو لأعمل في السمارة والرابوني أسبوعا أرافق وفدا غربيا وأسوق به.

في عام 1999 كان قد مضى على وفاة والديّ أربعة أعوام. عشت فيها وحيدا في منزل تندوف دون أن أفكر في الزواج، فكثرة تنقلاتي وسفري المستمر جعلاني أعزف عن الفكرة، ولعلني كنت قد بدأت أستحلي حياة الأعزب، فلم أرغب ولم أفكر في الزواج.

المهم أنه في صائفة تلك السنة تقرر عقد المؤتمر العاشر للبوليساريو بمخيم السمارة. كانت الأجواء مشحونة بين الصحراويين الذين بدؤوا يشعرون بلا جدوى انتظار ما لن يأتي، شعور سرعان ما زادت وطأته مباشرة بعد انتخاب رئيس جديد للجزائر قيل أنه يكنّ مودة خاصة للملك المغربي. كان الجميع يشعرون بدنو نهاية القضية الصحراوية، ولكن ليس على ما تمنوه، فقد كان يظهر لهم أن الرئيس الجديد، جاء ليقلب كل شيء: أسطورة العسكر، الإرهاب والفقر ومع هذه كلها قضية الصحراء الغربية، فلم يكن واضحا ما سيجنيه الرئيس الجديد من بقاء قضية تنغص علاقته بصديقه القديم الحسن الثاني ملك المغرب. لذلك كان المؤتمر العاشر للبوليساريو مهما، ليس فقط بالنسبة لشعب حلم حتى غرق في حلمه ولكن لنظام يملك دولة دون أرض.

وفي حين كان الجميع يرقب ما سيحصل، كنت من موقع عملي في المينورسو، أعلم أن لا شيء يمكن أن يتغير. فقد كانت أحاديث السيد فيلادير رئيس البعثة توحي أن الأمور ستظل على ما هي عليه، فكما لم يملك، منذ أشهر، أدنى شك في أن الأمم المتحدة ستمدد

مهلة عمل المينورسو إلى سنتين، كان خبيرا بصراعات المصالح بين الجزائر والمغرب التي كان يرى أنها ستمدد هي الأخرى في معاناة شعب قسمته الحروب وتقاسمته الدولتان. كان كلما سمعني أتحدث عن الحرية يبتسم ويقول بإسبانية ركيكة "من الجميل أن تحلم"، ثم يعلق بجمل تتحين فرص خروجها من شفتيه بين قهقهة لا أدري كيف كان يتمكن من تقسيطها على تلك الجمل الساخرة، كانت أكثرها قسوة "أتعلم يا حبوب.. إن للأمم المتحدة مشاريع كثيرة تسعى لتحقيقها، أحدها إدراج قائمة جديدة لحقوق الإنسان، وأهمها الحق في الحلم". لم أسخط أبدا على تعليقاته، ولا أذكر أنني استأت يوما منها. فمع مرور الوقت، بدأت أفهم لمَ لمْ يعد أبي مهتما بقضيته، فمع الوقت يتلاشى كل إيمان، خاصة إذا كنا لا نفعل شيئا غير الانتظار.

كانت مهمتي أن أظل في خدمة ثلاثة مبعوثين للأمم المتحدة أرستهم كملاحظين، إسبانيان وبريطانية. سعدت حين علمت أن رفائيل غنزلاس من بينهم، فقد عملت معه منذ سنة حين جاء في زيارة للمينورسو، وأعجبني أن ثمة في الغرب من يؤمن بنا شعبا متميزا يستحق أن يقرر مصيره، فقد كان على عكس معظم الغربيين الذين يعملون هنا مؤمنا بنبل عمله، حتى أنه قال لي مرة أنه من حسن حظه أنه يعمل في قضية يعرفها ويؤمن بها.

في اليوم التالي لوصولهم تندوف، تقرر أن أقل رفائيل وماريا غوميز وكاثرين إدواردز إلى مخيم السمارة، وكانوا جميعا قد قدموا من الجزائر العاصمة ليلا في الطائرة المخصصة للبعثات الإعلامية.

كنت متشوقا أن أرى أقربائي وأصدقائي وأقضي بعض الوقت معهم نستذكر الأيام الخوالي، فلم أزر السمارة منذ عامين. وجدتها أزرى مما تركتها، فعدا بعض البنايات الحكومية التي مولتها الجمعيات

المتعاطفة مع القضية، كانت السمارة كغيتوهات السود: بيوت من الطين والقصدير وبحر من الخيام الصفراء والبيضاء منصوبة، يعلو بعضها العلم الصحراوي، أطفال يتلهون بأي شيء بأقنعة من تراب وبأرجل مشقوقة حافية يرحبون بالوافدين، لم يكن ثمة رجال غير رجال الحكومة ونساء يرتدين ملاءات زرقاء في معظمها وأخمر سوداء لا تستر كل الرأس، كاشفة منهن شعرا ليليا من حرير.

كان الجميع يبتسمون.

تقاسمنا بسمات مضيفينا وتحياتهم الصادقة وترحيبهم ولسان حالهم بالحسينية "اشْحالكم.. ياك الخير.. ياك لاباس"، مقبّلين ومصافحين. كنت أثناء ذلك أحاول أن أمنع بعض الصبية من ملامسة مرافقيّ، وأنا أعلم ألا سبيل لأمنعهم عنهم جميعا. وما هي إلا دقائق حتى حضر المرشد ودل كل واحد منا على مكان إقامته. أما أنا ومرافقيّ فقد كنا نعلم أننا سنقيم في الرابوني، إذ كانت هذه تعليمات السيد فيلادير.

حين انتهى مرافقِيّ من عملهم، عدنا إلى الرابوني. كانت التاسعة ليلا حين حللنا بها. وجدنا في انتظارنا أحد العاملين في المينورسو، سلّمنا مفاتيح غرفنا ومؤونة التي أحضرها معه. وبعد أن تعشينا اقترح رفائيل أن نسهر قليلا، ما دام المؤتمر لن يبدأ إلا بعد غد. وافقت ماريا في حين فضلت كاثرين أن تنام. ومع قرار رفائيل وماريا كنت مجبرا على السهر معهما، فعملي كان يقتضي أن أرافقهما أينما حلا.

في الواحدة صباحا أمرني رفائيل أن أذهب لأنام. قال لي بلباقة "حبوب.. ليس عليك أن تسهر أكثر من ذلك، فقد قررت وماريا أن نسهر حتى الصبح". فهمت أنهما يريدان الاختلاء ببعضهما، فكما قلت أعرف رفائيل، ومما أعرف عنه حبه للنساء.

حاولـت أن أنـام ولا جدوى، فرغـم التعب حرمتني الحرارة أن أهنـأ علـى جنـب، حتـى إذا أذّن الفجـر قـررت أن أصليـه في مصلى المجمع، فالرابوني ليســت حارة ولا حي، هي مجمع ســكنات حسنة البنـاء، جعـل أحدهـا مصلّى. كانت الصلاة أكثر ما يذكرني بأبي، فقد كان كثيرهـا ولا أشـهد لـه ليلـة لا يقوم فيها قبيـل الفجر يصلي، عدا بالطبع أيامه التي يقضيها في الرابوني مع شلته من الشيوخ، فقد كان يهجر الصلاة هجرا، ولا يقوم إلا بتلك الطقوس الغريبة، ورغم ذلك كان يحثنـي علـى الصلاة، وكثيـرا ما كان يعنفني كلما حاولت تقليده في صلاته مع أصحابه، تلك التي لا ركوع ولا سجود فيها. كان يقول "تلـك أمـور أكبر منك".. "صلي أولا كما علمتك، وبعدها سـأرى". مـات دون أن أعـي مـا كان يتعبـد بـه مع شـلته، ولـم أفهـم أبدا غاية تعبداته وتعبداتهم. تلك الطقوس لـم تكن بالنسبة لي إلا كفرا واضحا وبدعا لا علاقة لها بالدين.

وككل فجـر كان المصلـى شـبه خـال من الناس، لـم نشـكل إلا نصـف صـف. بدأنـا الصلاة ومـا كدنا نقيم الركعـة الثانية حتى دخل المصلى جمع فاض بهم. لم أسـتطع منع نفسـي من اختلاس النظر إليهم، فما كادت الصلاة تنتهي حتى أيقنت أنها جماعة أبي.. بالطبع، فقد كنا في جويلية، وهم لا يجتمعون إلا في هذا الشهر وشهر فبراير. أعرف ذلك فقد كان أبي يصطحبني في كل مرة يجتمعون.

فكرت أن أحدث بعضهم عن والدي، فلعلهم لم يعلموا بوفاته، ذلك أنني لم أر أحدا منهم في جنازته. ولكني عدلت عن الأمر وقد أقنعتُني أن الوقت لم يكن ملائما لهكذا حديث، ثم إنه كانت أمامي ستون يوما يقضونها هنا في الرابوني، أحدثهم فيها وقتما أشاء.

-2-

كما كان مقررا، انقضى المؤتمر العاشر للبوليساريو على لا شيء. رحلت البعثات الصحفية ومعهم ممثلو الأمم المتحدة. أما أنا فبمجرد عودتي إلى تندوف، طلبت عطلة مرضية لمدة أسبوع، عدت إثرها مباشرة إلى الرابوني، فلم تسنح لي فرصة للحديث مع أصحاب أبي. بينهم شيخ سمعت والدي يناديه "النوي"، وكان أكبر المجتمعين في تندوف، فلطالما كان هو من يختار أول المنشدين وينتدبه ليكون مركز الحلقة.

كنت أعلم أنهم يبدؤون طقوسهم فجرا ولا يفرغون منها حتى يسدل الليل، لذلك فضلت أن أكلم الشيخ حين ينتهي من واجباته، فكان من عادته وجماعته أن ينصبوا خيمة عملاقة خارج مباني الرابوني، يقيمون فيها شعائرهم نهارا، باستثناء "المبعثية" التي ينشدونها خارجا، فإذا انتهوا يضطجعون فيها على حصائر غير وارفة.

خرجت من غرفتي قاصدا خيمة الشيخ وأصحابه، وكانوا قد نصبوها على بعد خمسمائة متر تزيد أو تنقص بقليل عن مستشفى الرابوني الجديد. كان معظم المريدين خارجا. سألت بعضهم عن الشيخ النوي، فأخبروني أن ضيفا من العاصمة جاء لزيارته، ولا يريد أن يزعجهما أحد. وعليه فضلت انتظاره خارجا.

في البداية انفردت بنفسي بعيدا عن الخيمة وأهلها، وحين طال انتظاري قمت وجلست حيث يمكنني الاستماع لأحاديث المريدين. كانوا منظمين في مجالسهم، بحيث شكل كل خمسة حلقة، ولهم فيها

محدث، إلا واحدة تشكلت من أربعة كأنهم ينتظرون الشيخ ليشكلوا حلقتهم، ومع هذا كانوا يتمتمون وكأنهم في تسبيح.

حاولت أن أركز سمعي، فهالني أنهم كانوا يتحدثون في نغم واحد، بحديث واحد، وكأنهم يسترجعون نصا حفظوه: "هو المقدس لروحه، المباركة روحه. جليل الذكر الموصوف بغير صفة. المعطى بغير حساب، المعطي ليوم الحساب. خارق الأين والمتى. تقدس في الجهر والسر بغير حديث. فك الله أسره وبعثه فينا...". ودعاء طويل لم تسعفني ذاكرتي لحفظه. ثم ينشدون بصوت واحد:

هلابيل.. هلابيل   أبونا أنت من قبلُ
فلا قابيل أو هابيل   أُعطي قبلك العقلُ

فإذا انتهوا قرأ أحدهم مفردا رافعا يديه إلى السماء برأس مطأطأ:

فُكَّ الأسر يا ألله   فك الأسر يا رب
وأعط روحه جسدا   كما أعطيتها الوافدْ

ثم يقرأ سواه مفردا كذلك:

أنت "..."، ويسرون لبعضهم باسم كأنهم يخشون الإجهار به:

أنت "..." يا ألله   أنت الأدرى بالسرِّ
فك الأسر يا رباه   يبعث فينا كالوافدْ

ولا زالوا على إنشادهم فرادى وجماعة، حتى إذا انتهوا، وقفوا كما يقف العسكر في استعداد، رافعين أيديهم إلى السماء، مطأطئين رؤوسهم، وقد أطبقوا جفونهم، وشفاههم تتحرك بلا صوت. ثم يعاودون الجلوس، إلا أول متحدث فيهم فينصرف ليدخل الخيمة، ليصبحوا أربعة ويقرؤون: " آت من الأرض كأشجار الصنوبر..

يعشــق الأرض وتعشــقه الســماء.. يخدش الرحم الذي زرعوه فيه كي يكون.. ينتظر اللحظة كي يأتي.. كي يخرج من جسد الأنثى ويحوِّل مــن حملتــه قرونــا، امــرأة لا يحرثها القادم من خلف الســر". لا أذكر نصهــم كامــلا ولكنــه كان على هذه الشــاكلة، كلام لا يفهم منه ظاهر ولا باطن، ولكنه يسبي العقول. كانت قراءاتهم له بألحانها تُسري في جســدي رعشــة، تبقيني مشــدوها، مذهولا وكأنني في حالة نشــوة لم أصــب بمثلهــا أبدا. حتــى إذا انتهوا من ابتهالاتهم وتجمعوا في حلقة أكبر ينتظرون انضمام الشيخ النوي إليهم، بقيت جالسا وكأنني أتأمل دون أن أكــون كذلــك. ربمــا كنــت مذهــولا أو لعل ســحرهم جعلني أنشغل عن نفسي بما لا أدري ما هو، ولولا أن يدا شعرت بارتعاشها هزتني لم أفطن أبدا.

"بماذا كنت لأشعر لو كنت واحدا منهم، أفك ألغازهم وأعرف ما يعرفونه من سر؟.. حتما أبي كان يعرف، كان واحدا منهم".. هكذا حدثت نفسي.

"تبحث عني". سألني وشدني من يدي لأجلس مثله. وأضاف: " لا بد أنك ابن صاحبنا سليمة رحمة السماء عليه".. إذن فقد كان يعلم بوفاته. ما أغباني كيف له ألا يعلم وقد كان صاحبه ســنينا، ثم إنه عوضه في طقوسه تلك، أكان يجب أن أقف قدامه وأسمع ترحمه عليه لأدرك أنه كان على علم بموته؟.

- كان من رجال الله. عليك أن تفخر به وبنســبك. جدك أيضا كان صاحبي وشــيخي، فكما ترى أنا في التســعين من العمر، عرفت سلفي وخلفي، حتى إن أكثر دعائي أن يأخذ الله أمانته.

قلت منافقا: "ما زالت البركة يا شيخ".

- لا عليك.. بماذا أخدمك؟

ـ حاشا لله. أنا خادمك، فقط أسأل عنك، فقد حدثني أبي عنك، وكان لا يقول الشيخ النوي إلا وذكرك بخير.

ـ هكذا إذن.. كان يكنيني بـ "الشيخ".

ـ إجلالا لك لا غير، ثم إنه...

قاطعني وقد رفع يده كأنه يأمرني بالسكوت: أنت جئت تخبرني بموت أبيك.

ـ ولكنك كنت تعلم.

ـ وتريد أن تفهم لِمَ لمْ أحضر جنازته ولم يحضرها أحد من هؤلاء. "وأشار إلى أصحابه".

ـ هو ذاك. وأيضا..

قاطعني: سأجيبك ولكن قل لي: أتفهم ما نفعل هنا؟

ـ لا.. لطالما أحببت أن أسأل أبي ولم أجرأ.

ـ ولِمَ، من حقك دائما أن تسأل.. ألم يعلمك أبوك أن أول الإيمان السؤال؟

ـ كان يقول إن الإيمان يقين ولا سؤال إذا رسخ.

صمت برهة وكأنه يفكر فيما يقول. شعرت أن ثمة ما يريدني أن أعرفه، ولكنه على حين غرة وقف، مادا يده إلي، يحثني على الوقوف. لم أفكر وسلمته يدي، ولم أكد أستقيم في وقفتي حتى باغتني: ثمة أمور لا يصلح أن تكشف، أبوك كان أعلم بذلك من سواه، ولو رأى فيك ما ينفع لورثك علمه ولكنه لم يفعل، غالبا لأنه رأى أنك لا تصلح لطريقتنا. كنت أعلم أنه لن يهيئك لتكون وريثه بدليل أنه سماك "حبوب"، وكأنه قرأك قبل أن تكتب.

ـ لم أفهم.. ما دخل اسمي فيما تقول؟!.

ابتسم وأضاف: أترى هؤلاء، "وأشار إلى أصحابه"، لو سألت أي واحد منهم عن اسمه لأجابك أنه "الوافد" أو "عباد"، حتى أنا أسمى "عباد"، وما "النوي" إلا لقبي. لو فكرت قليلا لأدركت أن ثمة سبب في كل ذلك. فكر.. فكر فقط.

بن يعقوب

"أصغ لصبرك.. لا تأبه، لم يبق الكثير. عام واحد أو أقل وتعود إلى العاصمة. لقد وعدوك بالعودة، ولو أرادوك جيفة لرموك في أي قفار..صدقني ثمة ما هو أكثر قفارا من الإدريسية.. ليس عليك الآن إلا أن تصبر بعض الشهور. صبرت كثيرا ولن تضرك أشهر أخرى. المهم أن تغلق فمك: لم تر، لم تسمع والأهم لا تتكلم. كنت شجاعا وصديقا طيبا، وسنكون نحن كذلك. لن تكون الإدريسية بعدها إلا ذكرى سنضحك لها كلما استذكرتها. وحين تعود سنتدبر لك أي منصب تأكل منه الشهد.. المطار أو الميناء أو أي مكان آخر نحتاجك فيه. البلد تحول إلى بنك كبير بدون حارس، ونريدك أن تكون الحارس، لا عليه بل علينا. فقط اصبر وسترى..".

كلما كلمته أجابني بهذا.. وعود تتبعها وعود. ومع هذا لا أمل لي في العودة إلى العاصمة إلا أن يعيدني هو. يداه الطويلتان جعلته ينأى عن العقاب وعن أي مساءلة. هو من أدخلني سلك الشرطة، وهو من جعلني أعين في أي مكان أريد. كان يقول لي "أنت لاعبي البديل، فلا تعتبر ما أصنعه لك مزية.. اعتبره تسبيقا تحت الحساب". لم يكذب في ذلك، بدليل أنني أدفع الآن مقابل خدماته. ولكني أملت أن تمنع يداه عني كما تمنعان عنه، بطبيعة الحال لو لم يكن موجودا لفصلت من العمل، على الأقل منحني فرصة لأستمر في

السلك. قال لي "اعتبر الأمر مجرد عطلة، سأجد طريقة لأعيدك إلى العاصمة ضابطا كما كنت". صدقته وما زلت أصدقه، ولكن نفيي إلى هذه الزريبة وتنزيل رتبتي إلى مجرد مفتش يدفعني أحيانا إلى اليأس.. ست سنوات، ألم تكفه ليجد طريقة ما؟. فلا شيء ثمة غير الملل، حتى الأيام كانت تتبدل فقط لتتبدل، وكأنها كانت تتعمد استطالة عقابي، وما كنت لأصبر أكثر لو لم يحدث في بن يعقوب ما حدث.

وصلنا بلاغ أن بن يعقوب تحترق: هاج شبابها وشيوخها وأضرموا النار في بعض البيوت، واستمروا في شغبهم ساعات، يحرقون العجلات ويضعون المتاريس، حتى أنهم هاجموا مقر الحرس البلدي ولولا حصانته لدكُّوه دكّا. لم يكن الأمر يحتاج إلى التردد.

توجهتُ في فرقة من أربع سيارات معبأة بالرجال، وأَرسلتْ قيادة الدرك مثلها، وجاءت سيارات أخرى من مدينة الجلفة. كان علينا أن نضع حدا للشغب، وإن لم نستطع نحاصر القرية وننتظر مدد الجيش.

كان الأمر غريبا أن يحدث شيء في هذه القرية، فلم نكن نعرف عن سكانها إلا القناعة والطيبة والاستسلام لوضعهم. كانوا قانعين بواقعهم، ولم تشكل فرقا عندهم أن تصل إليهم الحضارة أو تبقى قابعة في الجلفة المدينة.

خمن المحافظ أن ثورتهم بسبب تهميشهم، بسبب الغاز الذي لم يصلهم أبدا، بسبب النقل الذي يجعلهم رهائن الصدفة، أو بسبب البطالة التي أصبحت أول ما يرضعون عند خروجهم من بطون أمهاتهم.. فكرنا في تخمينه فوجدناه معقولا.

اقترح الضابط المسؤول أن نكلم رئيس البلدية لنعرف الوضع. حاولنا الاتصال به على خط بيته الثابت، فقد كان الوحيد الذي يملك خطا ثابتا، ولكن الهاتف ظل يرن ولا أحد يجيب. ولأن الهواتف النقالة لا تعمل هناك، فلم يبق أمامنا إلا أن نجازف وندخل القرية، إذ كنا أول من يصل.

أمرنا المحافظ أن نركن السيارات في مدخل القرية ويبقى السائقون فيها وعلى الرجال أن يترجلوا متفرقين. أما الضابط الذي كان برفقتنا ففضل أن يبقى مع السيارات وأمرني أن أقود الرجال.

ذهلتُ وأنا أرى القرية مقفرة. كان الجميع في بيوتهم، وكانت النار قد خمدت والمتاريس رفعت قبيل وصولنا، ولولا آثار حرق العجلات والمنزل الذي أضحى رمادا لزعمت أن البلاغ الذي وصلنا كاذب.

أمرت الرجال أن يتحصنوا في مواقعهم وتقدمت بحذر مع اثنين مشهرين أسلحتنا صوب مقر البلدية، أخرجنا الحارس وأمرناه أن يقودنا إلى منزل رئيس البلدية، وفي طريقنا سألته عما حدث، فادعى أنه لا يعرف شيئا ولم يفهم ما حدث. المهم أننا بلغنا وجهتنا ولم نجد رئيس البلدية. لم يكن في منزله غير زوجته وبناته. قلن لنا أنه متواجد في الجلفة لاجتماع سيعقد غدا مع الوالي.

توجهنا بعدها إلى المنزل الذي أحرق. كان يقع في الجهة الشرقية من القرية، غير بعيد عن مقر البلدية في زقاق ضيق تصطف على جانبيه منازل مبنية من الترنيت والطوب على شكل أحواش محاطة بأسوار. تبين لي بعد استجواب الجيران أنه كان مهجورا من قبل. قال لي أحدهم أنهم يسمنونه "دار البراني[1]"، لم يكن يعرف

(1) البراني: الغريب.

سبب هذا الاسم ولكنه أكد أنه مهجور ولم يسبق له أن عرف مالكه. سألته عما حدث فلم يعطني إجابة واضحة، حاله في ذلك كحال غيره من الجيران الذين كانوا يلحون علي أن أسأل الشيخ النوي. فهمت أنه شيخ القرية وصاحب الرأي فيهم.

لم تكن بن يعقوب إلا صورة منقحة لقبيلة دون خيام. تعثرت الحضارة عند عتبتها ولم تلح على الدخول، حتى العمارات التي بنيت على مشارفها منذ عشرة أعوام لم تسكنها غير الجرذان وبعض الكلاب الضالة، فلم يكن لأحد منهم أن يفضل السكن في العمارات على السكن في الأحواش، وكأنهم كانوا يخشون أن يصيبهم التحضر على حين غرة.

أصبحت مقتنعا أن تخمينات المحافظ جانبت الحقيقة. ليس هؤلاء من يثورون على واقعهم، بل على الواقع أن يثور عليهم. مازالوا يؤمنون بالمشيخة: أسألهم عما حدث فيجيبون: اسأل الشيخ النوي. لو أنهم قالوا اسأل رئيس البلدية لتفهمت الأمر، ولكنني لم أعد أعمل في العاصمة، ولا حتى في أي مدينة أفهم منطقها وتفهم منطقي. كان عليّ أن أتعامل مع الموجود.. أن أقنع نفسي بما يؤمنون به.."ما داموا مؤمنين بهذا النوي رئيسا لهم، فلا بأس، سأعتبره كذلك، إن كان هذا يعني أن أنتهي من هذه المهمة وأعود لأنام".. بهذا حدثت نفسي.

في الوقت الذي بلغت فيه منزل الشيخ النوي، كانت سيارات الدرك القادمة من الجلفة قد وصلت، ولما رأى قائدها أن الأمن استتب، أمر رجاله بتمشيط القرية بحثا عن أي شيء مريب. ثم عادوا من حيث جاءوا، تاركين الأمر لنا.

لم يكن الشيخ النوي متعاونا، هذا أقل ما أصف به إجاباته الهستيرية، لم أفهم منه شيئا، رغم أنني كنت متيقنا أنه على علم بكل

شيء، ظل يكرر "أخذوا كل شيء.. استأمنتهم وأخذوا كل شيء.. لم يكن هذا مقررا، اتفقنا أن يبقى كل شيء في دار البراني... رحماك يا رب، خنت أمانتك، لم أصنها.. رحماك يا رب..".

حينها أدركت أنه لم يعد أمامي إلا أن أتركه يهدأ إلى حين. طلبت الإذن من الضابط أن نستجوبه في المخفر لاحقا ونتركه تلك الليلة يبيت في داره، فقد كان الأمر يحتاج إلى بعض الروية. سألني الأحمق: "ولِمَ لا نأخذه معنا الآن؟"..

"أحمق أراد أن أقبض عليه لتثور القرية من جديد!".

في الغد وقبل أن أبدأ مداومتي رأيت الشيخ النوي يدخل المحافظة. كانت العاشرة أو تزيد قليلا. لم أصح باكرا بعد أن جفاني النوم ما وسعه، ولم يكن يهم متى أفيق ما دامت مداومتي لن تبدأ إلا مساء، ولكن بقدوم الشيخ النوي كان عليّ أن أقطع راحتي، فقد كنت المكلف بقضية بن يعقوب ولا يصلح أن يستجوبه سواي. بالطبع كان بمقدور الضابط أن يفعل ذلك، ولكنه، في تلك الليلة، وبمجرد عودتنا، اختلى به المحافظ ليخرجا إليّ بأمر أن أتولى قضية بن يعقوب بمفردي. علق الضابط متذاكيا "هذه قضية واضحة، لن تحتاج فيها أي ذكاء. أنهها كيفما شئت ولكن بسرعة"، وأضاف المحافظ "لن تحتاج فيها إلى رتبة، يمكنك أن تتولاها لوحدك".. وأضاف قبل أن ينصرف "هذه فرصتك لتظهر أنك لم تعد نذلا.. تعرف جيدا أنه لولا الواسطة لكنت اليوم في السجن أو في الشارع تشحذ اللقمة، فانتهز الفرصة، ربما أراك بعدها تساوي أوراق تحويلك". كان الأمر مهينا، ولكن لم يكن أمامي إلا أن أقبل بوضعي.. أستهل هذا وأكثر.

دخلت المحافظة، فوجدت الشيخ النوي جالسا ينتظر، كان على غير ما حدست بمفرده. بدا الأمر غريبا ألا يفضل المصاحبة وهو في

التسعين من العمر، ومع هذا لم يكن يبدو عليه الهرم لولا الشيب والتجاعيد.. وجهه أحمر كحبة رمان أو كوجه موسكوفي تجرع قارورتي فودكا.

ما أن رآني قادما حتى قام. لم أر في قيامه غير رشاقة وصحة ما كنت لأتصور أن تكونا في شيخ بينه وبين الموت شبر. مد يده مصافحا وقال بصوت مبحوح أراد له أن يكون خافتا: "مثلما أمرت.. أنا في خدمتك".

شعرت وهو يمسك بقبضتي بفوران دم وعافية، حتى أكاد أقول أن فيه شابا يعدو في جسده المترهل. تخيلت نفسي كيف أكون في مثل عمره.. كانت صورة بشعة أستحي الآن من وصفها.

جلس مغمغما "باسم الله"، ولم أكد أقول شيئا حتى بادر "لم أكن البارحة في كل عقلي، فلو قلت شيئا لا يصح فاعذرني فأنا مثل والدك".. ثم استدرك مبتسما "أقصد مثل جدك أو أب جدك، فلي أبناء أحفاد في مثل عمرك، بارك الله لك في صحتك".

أعجبني حديثه، ولكن لم تكن جلستنا تلك للمجاملة، فتظاهرت كما لو لم أعر حديثه أي انتباه.

صمتُّ برهة حتى نبدأ، أنا وهو، فصلا جديدا، فلا يصح أن أبدأ تحقيقا فتحه هو. باغتته بالسؤال: "اسمك كاملا، مهنتك وسنك". ضحك لحظة ثم أجاب: " عباد النوي.. تسعون عاما بحسب الظن، أما عملي.. لك أن تكتب أنني أنتظر الموت".

"لم أكن مخطئا، هذا الرجل داهية.. يريد أن يلطف الأجواء. طيب، سنرى"

ـ ماذا حدث البارحة بالضبط؟

ـ لا شيء مهم. سارق كدنا نمسك به، وحتى يفر منا أضرم النار في دار البراني.

ـ دار البراني؟!

ـ الدار التي أحرقها، فهي ملك واحد من الصالحين، اسمه سيدي محمد مناد بن شريف، سليل عائلة من الأولياء الصاحين، انقطع نسله منذ أعوام حين توفي آخر أحفاده سيدي عيسى بن قويدر رضي الله عنهم أجمعين. كان الأجداد يكنونه بالبراني لأنه جاء مغتربا.

ـ أتعرفون السارق؟

ـ ومن أين لنا أن نعرفه؟.. السارق عندنا أجرم من القاتل، ولولا معرفتنا بحدود الله لكان الأفضل لنا أن نقتل كل من يسرق أو يختلس.

صمتُّ قليلا. كان لا بد لي أن أفاجئه.. أصدمه بسؤال لا ينتظره، فالكلب جاء وقد حضر نفسه جيدا..

ـ ربما لهذا رجمتموه هو وحبيبته؟..

فعل سؤالي فعلته. لم يكن النذل يعلم أنني تقصيت عما يحاول إخفاءه عني. ولم يكن هذا إلا بعض ما يخفيه. ثمة شيء أكبر من السرقة.. أكبر بكثير، وإلا فما الداعي إلى رجم السارق.. شيء يفسر الهستيريا التي أصابته ليلة أمس.

تلكك قليلا، وحين تمالك بعض نفسه قال " الصبية.. الصبية من فعلوا ذلك".

قمت من مقعدي واتجهت إلى باب المكتب خارجا وقبل أن أغادر قلت: "أتركك تفكر خمس دقائق، ربما حين أعود تكون قد رجعت إلى رشدك. أملك أكثر من شهادة تثبت وجودك مع الراجمين،

لذلك أرجو أن تفكر فيما ستقول".

في الحقيقة، لم أكن أملك أي شيء، حتى حادثة الرجم ما كنت لأسمع بها لولا الصدفة. فقد كشف لي قائد الدرك ليلة أمس أن سائق تاكسي جاءهم البارحة ليبلغ عن زبون أقله إلى ومن بن يعقوب تعرض للرجم مع امرأة كانت برفقته، ثم قال أنه أوصلهما حتى مطار العاصمة وأن حالة الزبون كانت حرجة.

بعد دقائق عدت إلى المكتب، فلم أجد الشيخ النوي. اتجهت مباشرة إلى مكتب الاستقبال فأخبرني القائم عليه أنه خرج بصحبة المحافظ.

"ألم يقل هذا السمين أن القضية قضيتي؟". قلت لنفسي وقد خلت أن المحافظ يحاول استعادة القضية، ثم قررت أن أسترخي في مكتب الضابط إلى حين عودته لأفهم عنه.

وما كدت أغفو حتى أفقت على صوت المحافظ.كان غاضبا، يتلفظ بأي شيء "أين هذا البغل.. أين هذا الكلب". أشاروا إليه أنني كنت في مكتب الضابط فاقتحمه. وما كاد حتى بدأ سلسلة من السباب والشتم، فلم أكن بالنسبة إليه إلا مدللا لا أصلح لشيء.

ـ كلفتك بمهمة بسيطة ولكنك تأبى إلا المتاعب.

ـ متاعب؟!

ـ ماذا تسمي ما فعلته للتو مع الشيخ النوي؟!.. أتعرف من يكون؟.. من أنت بحق الله لتستجوبه. ربما تواضع حياء ولكنك تماديت.

"تماديت؟!..". صرخت في وجهه، "هذا العجوز كاد يقتل رجلا بالرجم..".

قاطعني " ابن زانية لا أكثر ولا أقل. كلب ونال عقابه، ما دخلنا نحن بما يفعلون بالسُرَّاق؟".

لم أصدق ما يقول، إن لم نكن نحن من يجبر هؤلاء المتخلفين على احترام القانون، فمن يفعل؟..

ـ إن كانت غايتك القبض على السارق، فنعمت، أكمل تحقيقك وتوقف عن حشر أنفك فيما يضر ولا ينفع. أتعرف أيها البغل.. لو شاء هذا الشيخ الذي استحقرته أن ينقلك إلى آخر الدنيا لفعل، بل ولو أراد فصلك والزج بك في السجن لا يمنعه عنك أحد. هناك أشياء أكبر منك لا تفهمها.

ـ ولكنه خرق القانون.. كاد يقتل رجلا.. أقسم أن هناك أمرا أعظم يخفيه هذا الشيخ الخرف. علينا أن نستجوبه ونعرف.. ربما يعمل في الإرهاب أو التهريب أو أي زبلة أخرى.

ابتسم وكأن هدوءه عاد إليه. تقدم نحوي ولف كتفيّ بذراعه هامسا: "أتفهّم حبك للقانون". قالها بنبرة الساخر. "ولكنك ما زلت غرا لتفهم في الأمور الكبيرة، ومع هذا أحبك، وأفهم أن ما اقترفته في العاصمة لم يكن إلا لنقص تجربتك.. خطأ كبير فحسب.. أنظر يمكنني مساعدتك، يمكنني حتى تحويلك إلى العاصمة من جديد".

"ما أدهى هذا السمين. جمع وعيده برشوته، ولكن ما الذي جعله يثور لمجرد استجواب عادي، لم يكن الشيخ النوي متهما عندي بشيء، ولكن الأكيد أنه أصبح كذلك".

لم أكن أملك لحظتها إلا مجاراته.. سجل خدمتي ثقيل بما يكفي لأضيف عليه.. وقررت أن أقبل رشوته، فالعودة إلى العاصمة أكثر ما يهمني ومع هذا عزمت أن أعرف ما يخفيه النوي. فقد كان ظاهرا لي، أنه يخفي شيئا مريعا، وإلا ما الذي دعاه إلى الاستنجاد

بالمحافظ شخصيا؟..

"طيب ولكني أريد أن أقبض على هذا اللص". قلت وأنا أعلم أنه سيجد حجة أخرى ليسحب مني الملف.

ـ حتى هذا لا يهم. نال عقابه وانتهى الأمر.

صمتُّ، فلم يكن ما سأقوله لينفعني في شيء. أضحى الأمر واضحا: المحافظ يريد أن يغطي على الأمر.

قبل أن ينتهي ذلك اليوم، طلبني المحافظ إلى مكتبه ليخبرني أنه يحتاج شهرا ليرتب أمر تحويلي، ويسعده لو أخذت عطلة إلى حين يتم الأمر.. وبالطبع وافقت.

* * *

قررت أن أعود إلى العاصمة إلى حين تنتهي إجراءات التحويل. كنت مشتاقا لرؤية الأهل والأصدقاء. هل كنت سعيدا؟.. أكيد ولكن لم تكن سعادة كاملة، فقد كان ثمة ما ينغص عليّ، لم أكن قادرا على نسيان قضية بن يعقوب، ولكن لم يكن باليد حيلة. سُحب مني الملف وغالبا أتلف، ولم يعد أمامي إلا أن أذعن لأوامر المحافظ. على الأقل جنيت شيئا.. سأعود للعمل في العاصمة بعد ست سنوات من المنفى.

* * *

في السابعة صباحا وصلت إلى الجلفة.. محطة الحافلات تفيض مسافرين، معظمهم متوجه إلى العاصمة. سألت أحدهم فعلمت أن ثمة حافلة على الثامنة وأخرى على التاسعة والنصف، فقررت أن أنتظر آخر حافلة، فثمة أمور كان علي أن أقضيها.

في البداية عرجت على بعض معارفي أودعهم ثم قصدت مركز

الدرك لأرى قائده الذي كان برفقتي أول أمس، فقد رغبت أن أسأله عن سـائق التاكسـي الذي قدم بلاغا بخصوص الرجل المرجوم. بعد إلحاح مكنني من المحضر، فهمت أن المدعو استأجر سائق التاكسي ليوم كامل. لم تكن تلك أول مرة يسـتأجره فيها، فقد سـبق وأن أقله مـرارا إلـى بـن يعقـوب ومنهـا إلى العاصمـة. في هذه المـرة دفع له مسـبقا. كان برفقـة امـرأة وصفهـا أنها نحيلة، طويلـة غير متحجبة في حوالي الأربعين، سمراء بشعر أسود وعينين سوداوين. قال أنها كانت أول مرة ترافقه فيهاامرأة.

حيـن بلغـا بـن يعقوب أمـراه أن يركن بعيدا فـي مدخل القرية، فـي حيـن نـزلا راجلين، ثـم عادت المرأة وقد بدت مسـتاءة. لـم تمر عشر دقائق حتى رأى بعض السكان يركضون في اتجاه بيوت أرضية مـن الترنيـت، ثم شـاهد دخانا يتصاعد مـن هناك، وفي لحظات ظهر الرجل يهرول بصعوبة ورأسه تنزف دما. لم يفكر السائق في شيء غير الفـرار، ورغـم محاولته لمعرفة مـا حدث، ظل الرجل صامتا والمرأة التـي معـه تنـوح وتبكي. ثم أمره الرجـل بالتوقف أمام أول صيدلية، فنزلت المرأة واشترت ضمادات ولفت رأس صاحبها.

حيـن وصلـوا مطار هـواري بومدين بالعاصمة، سـاعدهما على حمل المتاع، ثم دخل معهما المطار. طلبت منه المرأة أن يسأل عن أول رحلـة إلـى تنـدوف وأن يحجـز لهمـا. ولولا أنه حجـز لهما لما عـرف اسـميهما: الرجـل يدعـى قدور فراش، أما المرأة فكان اسـمها نوى شيرازي..

"أخيـرا أملـك خيطـا يمكننـي البداية منه". قلت لنفسـي قبل أن أدرك ألا جدوى من ذلك، فقد سـحبت مني القضية ولـم يعد مجديا أن ألح على فتحها من جديد. ولكن شـيئا في داخلي تحرك، شـيء

خلتني تركته في العاصمة.. هجرني يوم أُنزلت رتبتي وحولت إلى الإدريسة. كان لا بد أن أعرف ما حدث. فلم يكن الأمر معقولا أن يحاول البعض قتل رجل لمجرد أنه سرق منهم.. ثم ماذا سرق؟، ولماذا استعان الشيخ النوي بالمحافظ ليخرجه من القضية؟. ما الذي جعل المحافظ يرتعد بمجرد أنني حاولت استجواب النوي ومعرفة الحقيقة؟. لماذا لم يقدم قدور بلاغا بما أصابه في بن يعقوب؟. من أحرق دار البراني وما دور تلك المرأة السمراء في كل ذلك؟... أسئلة.. أسئلة لا تنتهي، والذي تحرك في صدري جعلني موقنا أن جميع الأجوبة مع قدور.. ولكنه بحسب إدلاء السائق سافر إلى تندوف.

قبل أن أخرج سألت قائد الدرك إن بحث عن هذا الـ"قدور" وصاحبته في سجل المسبوقين قضائيا، أجابني أنه مسبوق بجريمة قتل قضى عقوبتها وأن للمرأة ماض في عالم الدعارة. ودون أن أطلب منه سلمني بعض المعلومات عنهما. قال مازحا: "يبدو أنك ستصبح تحريا خاصا". لا أعرف لمَ، ولكنني شعرت أنه يدعوني للاستمرار في البحث.. لم يكن هذا شعورا فحسب، فحين هممت بالمغادرة أعطاني هاتف صديق له هناك. قال مطمئنا "سيخدمك بعينيه، إنه رجل طيب ويعرف كل الناس".

* * *

.. ودون أن أفكر سافرت إلى تندوف.

فكرت أولا أن أبحث عن فندق أحجز فيه، ولكنني تذكرت صديق قائد الدرك فهاتفته.

أعترف أنني وجدته كما وصف لي. دعاني إلى بيته وإلى

الغذاء وفي المساء إلى حمام أعدت به نشاطي. رجل طيب بحق، يسكن بمفرده منزلا أرضيا بضواحي تندوف، لا تكاد تخلو غرفة منه من لوحات لبعض آيات القرآن الكريم. كانت غرفة الضيوف أشبه بمسجد منها إلى غرفة، فسيحة، مفروشة بالزرابي والحصائر، وبها مكتبة معظم كتبها في الدين والفلسفة. صحيح لا علاقة لي بالدين أو الفلسفة، ولكن لم يكن الأمر يحتاج لذكاء خارق لأدرك ذلك.

ـ أرجو أن تكون في صحة جيدة.

قال بدارجة ركيكة يجاهد في سلامتها. لم يدهشني الأمر، فقد كنت أعلم أنه صحراوي، أقصد من الصحراء الغربية. لم يخبرني بذلك قائد الدرك ولكنه حين أعلمني باسمه عرفت أنه إما أن يكون صحراويا أو موريتانيا: "حبوب ولد سليمة"، لذلك خمنت أنه غير جزائري. وما دام يعيش في تندوف فالغالب أنه صحراوي. تأكد لي الأمر حين أقلّني إلى بيته، بدأ حديثا طويلا عن المغرب والحرب والصحراء، وما كاد ينتهي منه حتى بدأ الحديث عن المؤتمر العاشر للبوليساريو وكيف أنه صدم بنتائجه الصحراويين. حتى ونحن نستحم لم يكف عن ذكره لحمام العيون. قال أنه لم يعرفه ولم يعرف حتى مدينة العيون ولكن أباه أخبره عن كل تفصيلة فيها. أعترف أنه رغم طيبته رجل ثرثار.. ربما لأنه يعيش في الغربة بمفرده.

ـ الحمد لله. أشعر بالدم مجددا يجري في عروقي.

ـ الحمد لله على نعمته.. ولكن لم تقل لي كم ستمكث في تندوف. لا تسئ فهمي، أسأل فقط، فحتى لو بقيت عاما فستظل ضيفي. سيكون من المفيد أن أعلم حتى أحسن خدمتك، جئت من قبل صديق.. ربما يكون أعز أصدقائي. لا أريد بعد رحيلك أن يهاتفني فيوبخني، حتى أنني أتمنى أن أكون صديقك أيضا.. أنت

خلتني تركته في العاصمة.. هجرني يوم أُنزلت رتبتي وحولت إلى الإدريسة. كان لا بد أن أعرف ما حدث. فلم يكن الأمر معقولا أن يحاول البعض قتل رجل لمجرد أنه سرق منهم.. ثم ماذا سرق؟، ولماذا استعان الشيخ النوي بالمحافظ ليخرجه من القضية؟. ما الذي جعل المحافظ يرتعد بمجرد أنني حاولت استجواب النوي ومعرفة الحقيقة؟. لماذا لم يقدم قدور بلاغا بما أصابه في بن يعقوب؟. من أحرق دار البراني وما دور تلك المرأة السمراء في كل ذلك؟... أسئلة.. أسئلة لا تنتهي، والذي تحرك في صدري جعلني موقنا أن جميع الأجوبة مع قدور.. ولكنه بحسب إدلاء السائق سافر إلى تندوف.

قبل أن أخرج سألت قائد الدرك إن بحث عن هذا الـ"قدور" وصاحبته في سجل المسبوقين قضائيا، أجابني أنه مسبوق بجريمة قتل قضى عقوبتها وأن للمرأة ماض في عالم الدعارة. ودون أن أطلب منه سلمني بعض المعلومات عنهما. قال مازحا: "يبدو أنك ستصبح تحريا خاصا". لا أعرف لمَ، ولكنني شعرت أنه يدعوني للاستمرار في البحث.. لم يكن هذا شعورا فحسب، فحين هممت بالمغادرة أعطاني هاتف صديق له هناك. قال مطمئنا "سيخدمك بعينيه، إنه رجل طيب ويعرف كل الناس".

* * *

.. ودون أن أفكر سافرت إلى تندوف.

فكرت أولا أن أبحث عن فندق أحجز فيه، ولكني تذكرت صديق قائد الدرك فهاتفته.

أعترف أنني وجدته كما وصف لي. دعاني إلى بيته وإلى

الغذاء وفي المساء إلى حمام أعدت به نشاطي. رجل طيب بحق، يسكن بمفرده منزلا أرضيا بضواحي تندوف، لا تكاد تخلو غرفة منه من لوحات لبعض آيات القرآن الكريم. كانت غرفة الضيوف أشبه بمسجد منها إلى غرفة، فسيحة، مفروشة بالزرابي والحصائر، وبها مكتبة معظم كتبها في الدين والفلسفة. صحيح لا علاقة لي بالدين أو الفلسفة، ولكن لم يكن الأمر يحتاج لذكاء خارق لأدرك ذلك.

ـ أرجو أن تكون في صحة جيدة.

قال بدارجة ركيكة يجاهد في سلامتها. لم يدهشني الأمر، فقد كنت أعلم أنه صحراوي، أقصد من الصحراء الغربية. لم يخبرني بذلك قائد الدرك ولكنه حين أعلمني باسمه عرفت أنه إما أن يكون صحراويا أو موريتانيا: "حبوب ولد سليمة"، لذلك خمنت أنه غير جزائري. وما دام يعيش في تندوف فالغالب أنه صحراوي. تأكد لي الأمر حين أقلَّني إلى بيته، بدأ حديثا طويلا عن المغرب والحرب والصحراء، وما كاد ينتهي منه حتى بدأ الحديث عن المؤتمر العاشر للبوليساريو وكيف أنه صدم بنتائجه الصحراويين. حتى ونحن نستحم لم يكف عن ذكره لحمام العيون. قال أنه لم يعرفه ولم يعرف حتى مدينة العيون ولكن أباه أخبره عن كل تفصيلة فيها. أعترف أنه رغم طيبته رجل ثرثار.. ربما لأنه يعيش في الغربة بمفرده.

ـ الحمد لله. أشعر بالدم مجددا يجري في عروقي.

ـ الحمد لله على نعمته.. ولكن لم تقل لي كم ستمكث في تندوف. لا تسئ فهمي، أسأل فقط، فحتى لو بقيت عاما فستظل ضيفي. سيكون من المفيد أن أعلم حتى أحسن خدمتك، جئت من قبل صديق.. ربما يكون أعز أصدقائي. لا أريد بعد رحيلك أن يهاتفني فيوبخني، حتى أنني أتمنى أن أكون صديقك أيضا.. أنت

تفهم أكيد.. أنت تفهم..

كان يتحدث بدون انقطاع، كل جملة تبتلع سابقتها، حتى يضطرك لتنسى سؤاله. أقسم أنه كان قادرا أن يتحدث ساعة دون أن يجف ريقه، ولو لم أقاطعه لظل يتحدث الليلة بطولها في أي شيء.

ـ لا أعلم.. حقيقة لا أعلم.

ـ لا تعلم ماذا؟

"هل يعقل أن يكون قد نسي سؤاله؟!"

ـ لا أعلم كم سأمكث في تندوف، ينوط الأمر بقدرتي على إيجاد شخص أبحث عنه.

ـ لن يكون الأمر سهلا.. تندوف مدينة كبيرة.. ولكن لا يهم، ستكون ضيفي مهما طالت زيارتك، وربما سأساعدك على إيجاد صديقك.

بدا لي أنه سرح قليلا، ربما لم يكن راغبا أن أقضي وقتا أطول في ضيافته. على كل حال لم أكن لأحتمل ثرثرته أكثر من يوم وليلة.

قلت حتى أحول مجرى الحديث:

ـ لم تقل لي أين تعرفت على صديقنا الدركي؟

ـ هنا في تندوف. أمضى عاما هنا في الخدمة.. عاما أو أكثر. "استطرد". وأنت؟

ـ في بن يعقوب.. في الجلفة، التقينا في مهمة.

ـ بن يعقوب؟!

قالها يتلكأ. "لم تكن هذه أول مرة تذكر فيها هذه القرية أمامه". حاولت استدراجه، لم أكن لأخسر شيئا:

ـ تعرف.. حدث حريق مهول في تلك القرية، وفيها رجم شاب برفقة فتاة، يقال أنه سرق شيئا مهما من هناك.

ـ أي شيء؟

ـ لا أعرف.

ـ لا تعرف؟!.. ألا يجدر بالضحية أن يبلغ عمّا سرق منه.

ـ في الأحوال العادية نعم. ولكن في هذه القضية لم يكن للبيت المسروق مالك.

ـ إذن، فلا جريمة هناك؟

ـ يبدو أنك تعرف القانون.. ومع هذا هناك جريمة حدثت، فثمة رجل رجم ولعله مات في هذه الساعة.

ـ إذن.."تردد قليلا"..

ـ لا شيء.. فقط لو ظهر هذا الرجل وقدم بلاغا، فمن الممكن أن نثبت الجريمة، ولكنه اختفى مع مرافقته وأنا على يقين أنه في تندوف.

ـ أنت،إذن، لا تريد إلا أن تأخد العدالة مجراها.. "قال ذلك وهو يبتسم".

ـ بالضبط، ولن ينفع الأمر إلا إذا وجدته.

ـ أمر غريب.. أقصد أن تتعقب رجلا من الجلفة إلى هنا، فقط لتأخد العدالة مجراها.. لا بد أن ثمة أمرا آخر.

"أخيرا نزعتَ قناعك، لم تكن أبدا الأحمق الذي أردتني أن أتصور أنه أنت".

ـ لا شيء آخر.. أقسم، بدليل أنني هنا بمحض إرادتي ولم أكلف بأي مهمة.

صمت حبوب برهة. ولبرهة أيضا فكرت ألا طائل من الحديث معه، فلم يبدو أنه فهم شيئا من كلامي، لن يتعدى أن يكون ما دار بيننا إلا قصة يتلهى بها لاحقا.. هذا ما اقتنعت به، لو لم يفاجئني لاحقا:

ـ سيكون من المفيد أن ننام باكرا، فالطريق إلى الرابوني شاقة ومتعبة.

ـ الرابوني؟!

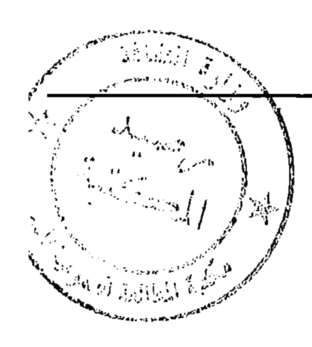
ـ نعم.. هذا بالطبع إن كنت راغبا في رؤية قدور فراش ونوى شيرازي.

لم أنم كثيرا تلك الليلة.كانت أول مرة يفاجئني فيها أحد. ربما لأنني أضعت مواهبي وتعطل حدسي حتى لم أستطع اكتشاف علاقة حبوب بالرجل والمرأة.. ولكن أي علاقة تربطه بهما: هما من العاصمة وهو من الصحراء.. الرجل قاتل ومحكوم عليه والمراة عاهرة محترفة، أما هو فرجل طيب، متدين يعمل في هيئة دولية، حتى أن جل أصدقائه من الدرك والشرطة والجيش، وحسب ما قاله فلقد كان أبوه شيخا أو إماما أو رجل دين، أما هاذين...

لا علاقة للأمر بالحدس ولا حتى بالموهبة. أي واحد كان ليسلم ألا علاقة لهذا الرجل الطيب بهذين المجرمين.. "مجرمان"؟!، لماذا وصفتهما كذلك، ألأن الرجل دخل السجن لجريمة قتل، ولكنه قضى دينه وانتهى الأمر. لا شيء في سجله يشير أنه ظل كذلك، حتى أنا أملك صديقا قتل بالخطأ، هل كنت لأفكر فيه على أنه مجرم؟.. وهي.. هذه السمراء، لم تسجل لها هفوة مذ كانت في الخامسة والعشرين، سجلها ظل نظيفا.. ربما تكون قد تابت، وربما لم تكن أبدا عاهرا.. ربما.. ما أدراني لأحكم عليهما هكذا.. وأنا،

ألســت مجرما، أم شــارتي تمنع عني هذا الوصف. على الأقل أعرف مـا اقترفتـه ومـا جعلني أنفى إلى الإدريســية ســتة أعوام يشــبه بعضها بعضا..

على هذا أرقت معظم تلك الليلة، وما كاد جفناي أن يطبقا تعبا حتى أيقظني حبوب. فضل أن نســافر قبيل الفجر، ولكني بمجرد أن وضعــت دبــري علــى مقعد الســيارة، حتى خطفنــي الرقاد وحبوب لا يفعل شيئا، لينتشلني منه، غير ابتسامة طبعت شفتيه.



الرابوني

-1-

لم تكن الرابوني مدينة ولا ضاحية. لم تكن قرية في الريف ولا واحة في صحراء، كانت كل ذلك دون أن تكون أيا منها. هي صفعة لتحضر تحاول أن تلجه، وضرب على قفا الصحراء الطيبة. أبنية لا تجمعها هندسة تمنحها هوية ما، وما كان ليهم ما تمنحها لو رأفت بها وخلقتها أي خلق.. كنت وأنا أراها لأول مرة كأنني أرى نفسي في مرآة.. ترجمة إسمنتية لما أنا عليه، جسد بلا روح.. هوية أشعر بها دون أن أقدر على إمساكها. فلا الشرطي الذي صرتُه ولا حتى ما رآه الناس من قبل كان أنا، فلشد ما شعرت أنني اغتصبت حياتي وأرغمتها أن تحبل بي على صورتي هذه، وعوض أن تلدني، أن تضعني، بصقتني كما بصقت السياسة هذا المسخ المسمى الرابوني، وتلك الخيام المنصوبة على غير مرأى البصر هناك في المخيمات، تلك المسماة، شوقا أو نفاقا، بأسماء مدن يذكرها الحلم ذكرى، ويشطبها الواقع من كراسة الحلم.. أي أرض موعودة يريدونها بدون جهد.. يريدونها بالانتظار.. ولكن لا لوم.. كل اللوم على تجار الحلم، باعة الرجاء، هؤلاء الذين حاموا على أقبية الوقت حتى نزعوا من أجندا النائم فجره.. لا لوم.. لا لوم.

حيث أوقف حبوب سيارته النيسان، بنايات بيضاء ملتصقة من طابق واحد، تشكل مستطيلا بتر أحد ضلوعه، لكل منها باب من الخشب، إلا التي كانت في الزاوية على الشمال، فقد كانت مزودة بباب حديدي. وكان ثمة محل كتب على حيطانه الخارجية بخط اليد "طاكسي فون"، يجلس على عتبته رجل نحيل يلبس ملاية زرقاء، ويضع على رأسه عمامة أرادها غير مرخية. حيى حبوب رافعا يده وابتسم، فأبان عن أسنان صفراء يحفها سواد. حياه حبوب بدوره وتقدم نحوه بعد أن أشار لي أن أقف مكاني.

لم تمض دقيقة حتى عاد بوجه غير وجهه. سألته فلم يجب. أشار لي أن أركب السيارة من جديد. لم أجادله وركبت، وما كدت أستوي في مقعدي حتى بادرني: "مات قدور ونوى في تندوف يحققون معها". أردت أن أعلق بأي شيء ولكنه أشعل الراديو وطلب مني سيجارة. كانت تلك أول مرة أراه يدخن.

كانت العودة إلى تندوف تشبه العودة من جنازة صديق. لم نتحدث فيها عن شيء. بقي صامتا فاحترمت صمته، ولم أشعر حتى بلغنا تندوف. أوقف السيارة أمام مقر الولاية، وحينها قال لي: "نوى في ذمة التحقيق لوفاة قدور، وأنت تعلم أن لا يد لها في الأمر". علقت "سيطلقون سراحها بلا ريب و.. ". قاطعني " ومع هذا يجب أن نحتاط، أكلم السيد عبسي، مدير ديوان الوالي، هو رجل طيب، ولأبي مزية عليه حين لم ينقل في آخر حركة للولاة، لا بد أنه قادر على فعل شيء".

كان حزينا.. هذا ما كان عليه. بالطبع لم أكن مثله ولكني في المقابل تأسفت على موت المدعو قدور. كان من المفيد أن أسمع القصة من فمه، ولكن لا بأس. هناك أمل في أن يفرج على نوى،

وهي تعلم بلا شك ما حدث، على الأقل ستخبرني برواية قدور.. هكذا عزَّيت نفسي.

خرج حبوب من مقر الولاية بع أن أمضى قرابة الساعة في الداخل. قال لي وهو يركب السيارة "قُضِي الأمر، سيفرج عن نوى قبل المغرب، علينا أن نتوجه حالا إلى مقر الدرك". ابتسمت فلم يعر ذلك بالا.

ونحن ننتظر خطر لي سؤال "أي مزية يمكن أن تكون لصحراوي على مدير ديوان؟". لم يكل السؤال عاجلا ففضلت الاحتفاظ به إلى حينه. ما كان يهم ساعتها أن تخرج نوى ونُقلّها إلى دار حبوب، لقد أضحت مفتاح كل شيء، وبعدها يمكن أن أطرح ما أشاء من الأسئلة.

بقينا ننتظر ساعات دون أن تخرج نوى، وحبوب لا يكلّ من مهاتفة بعض معارفه، وبعد كل مكالمة يقول مبتسما "سيطلقون سراحها الآن"، وفي كل مرة يخيب أمله، فيهاتف ويهاتف دون أن ييأس أو يمل. تمنيت لو حظيت بصديق مثله، على الأقل كنت لأعلم أنني لن أموت بغير رفقة، ففي الخمسين تبدأ النهاية في فتح نوافذها، ليس لتطل في الحين، ولكن تتهأ، تتزين لتطل، ربما تأخذ كل وقتها، حتى إذا أمنت لها تقفز عليك على حين غرة.. كان من الغريب أن أفكر في الموت في مثل هذا العمر، ولكن سوابقه في عائلتي تجعلني أفكر فيه دائما: أبي مات في مثل سني وأغلب إخوتي كذلك.

.. وأخيرا خرجت.

بدت من مشيتها غاية في التعب، تسحب رجليها في خطوات قصيرة وتنظر بعينين فارغتين، ورغم اصفرار وجهها الخالي من الماكياج كانت تشع بشيء من الملاحة الطبيعية. ربما لعب قوامها

المثالي دورا في ذلك، ولكن الأكيد أن دوره ما كان ليتضح لولا ذلك الوجه الصافي من كل عبث للزمن. بالطبع ظهر أنها في الأربعين أو يزيد بقليل، ومع ذلك ما كان لأي صبيَّة في العشرين، مهما كان وصفها، أن تُنسي الرصيف الذي سارت عليه، أنها سارت عليه..

لم تكلف نفسها النظر إليّ. صعدت السيارة وحبوب يعينها. للحظة شعرت أنه سيغمى عليها، ولعل حبوب حدس حدسي فأسندها، وظل يراقبها حتى جلست في الخلف. ثم استوى في مقعده وأدار المحرك. لم يقل شيئا وهي مثله لم تقل، وفي صخب هذا الصمت خشيت أن أنبس بكلمة.

دقائق ووصلنا بيت حبوب. ربت على ساقي وهمس لي "ابق هنا.. سأعود"، لم أجادله حتى عاد وقد أودع نوى المنزل. قال لي "سندعها الليلة تستريح، أما نحن فنتدبر أمرنا.."، واستطرد "لا يصح أن نبيت معها في بيت واحد..". أردت أن أعلق ولكنني لجمت نفسي. قلت ببلاهة "هو ذاك.. هو ذاك".

أعترف أنني وددت أن أقول له "وما الضير أن نبيت في منزل واحد.. هذه عاهر لا خوف على سمعتها، حتى أنه لا سمعة لها، ما الضير إذن وأنت وأنا نعرفها ونعرف ألا خوف عليها.. أم أنك أنت من يخشى على سمعته، وفرضا أنك تخشى على سمعتك. ألست تسكن بيتا متطرفا لا يصله راجل؟..". ولكني كنت أعلم ألا جدوى من سؤاله، فقد كان بيني وبين الحقيقة ليلة واحدة أقضيها كيفما كان. وبعدها سأرى إن يبدأ الأمر أو ينتهي.

بعد أن تعشينا واشترى لها عشاء، توجه بي إلى الرابوني مرة أخرى. فتح الغرفة التي كان فيها قدور ونوى يقيمان. قال لي مازحا "لا تلمس شيئا.. حاول أن تنام هذه الليلة، فغدا علينا العودة إلى

تنـدوف باكـرا. انتهت عطلتي وسـأبدأ العمل غـدا، أما أنت فانتظرني إلى حين عودتي".

في الغرفة سريران وكتب شتى تكاد ترسم حدودها، جدران مطلية بالجير وأرضية من الإسمنت، تنتهي بمرحاض تركي لا باب له.

سألت حبوب "أهذه كتب قدور؟". أجابني دون أن يفكر "كتب أخيه السايح ".

"أخـوه؟!". فلتـت مـن فمي. "ما الذي يحدث لي؟!.. "صرخت في داخلي".. كيف سمحت لنفسي بالانفعال؟!.. ألم أعد قادرا على كبح مشـاعري كما يفعل أي شـرطي يسـتحق هذا الوصف، وأطرح السـؤال دون أطرحـه.. ألـم أعـد قـادرا كما كنت على اسـتدراج من أسأل، فيقول كل ما لديه دون أن يشعر؟!.. ".

لم يجبْ. كتمدد وأطبق جفنيه مؤذنا للنوم. لم أشأ أن ألح، فلم يكن الأمر مهما.. على الأقل، هكذا بدا في تلك اللحظة...

لـم تطـل الليلـة، ولا كان الطريق إلـى تندوف في اليوم الموالي طويـلا. وعلـى خلافهمـا كان انتظاري لحبوب حتـى انتهى من عمله لدى المينورسو.

لـن أنكـر أننـي كنت متلهفا للقاء نـوى، حتى فكرت أن أخطف رجلي لزيارتها في غياب حبوب، إلا أني خشيت أن تردني، فحبوب لم يعرفنا على بعضنا بالأمس، وكأنه تعمد الأمر ليبقى وجوده ضروريا بيننا، لهذا انتظرته حتى انتهى من عمله. أعتقد أنها كانت الثامنة مساء حين هاتفني وضربنا موعدا في المطعم الذي تعشينا فيه البارحة، ومن هناك اتجهنا إلى المنزل.

في الطريق سألت حبوب: أين نبيت الليلة؟.

أجاب وكان قد فهم قصدي:

ـ وأين تريدنا أن نبيت؟!

ـ أنت المضيف، ولكن عليك أن تفهم حاجتي لسؤال نوى.

لـم يمهلنـي لأجـد مبـررات أخرى لمبيتنا في منزلـه، ولعلني ما كنت لأجد غير ما ذكرت لو أمهلني. كل ما في الأمر أنني كنت أريد ملء فراغات قضيتي، أن أنهي ما جئت بسببه، وما كانت ستسنح لي الفرصة، إن هو بقي على رفضه لمبيتنا في منزل واحد مع نوى.

ـ نبيـت فـي الرابونـي.. حسـبت الأمر واضحا. "قـال بنبرة فيها صرامة".

"إذن، لا أمل في سؤالها الليلة". قلت في سري وجاهرت: أنت المضيف وأنت من يقرر.

ومضت تلك الليلة أيضا دون جديد.

وفي اليوم الموالي حدثتني نفسي أن أعود إلى العاصمة. أخبرت حبـوب بنيتـي فابتسـم. لـم أفهم ابتسـامته، ولم أكن راغبـا في معرفة سـببها. قال هازئا: "حسـبتك راغبا في معرفة ما حدث لقدور في بن يعقوب". وأضاف: "يمكنك ذلك بالطبع، ما دامت نوى سـتعود إلى العاصمة في رحلة الليلة.. ".

لم أعلق..فقط، ضربته على قفاه وهو يضحك كالمجنون..

-2-

كنا وجها لوجه.. ومع هذا لم أنبس بكلمة.

كانـت تلـك أول مـرة لا أعـرف فيهـا مـن أيـن أبـدأ وإلـى أين سأنتهي.

في رأسي عشرات الأسئلة، ربما المئات، ورغم ذلك بدا الأمر مسـتعصيا. هل سـأبدأ بالسؤال عن حالها وكيف قضت أيام التحقيق، أم أعزيهـا فـي قـدور وأظهـر لها بعض الشـفقة لأدخـل بعدها صلب الموضـوع. أم ربمـا ألقـي بالمجامـلات والمقدمـات جانبـا وأسـألها مباشرة عن واقعة بن يعقوب، ما دام لا شيء يهمني غير هذا.

جسست نبضها:

ـ تبدين اليوم أفضل.

"لم تجب"

ـ أعـرف أجـواء التحقيـق. قمت بذلك مئات المرات، ولعل كل من اسـتجوبتهم وحققت معهم شـعروا بما شـعرت به، ولكني أعرف أن الحقيقة لا تظهر إلا بالضغط، لذلك أتمنى ألا تحملي لهم شـيئا في قلبك.

"لم تعلق"

ـ هـذا عمـل لا يقبـل المجاملـة.. أقصـد عمل الشـرطة لا يقبل المجاملة، لذلك لا بغض فيه ولا حب..

"لم تقل شيئا"

ـ ومع ذلك على الشرطي أن يظهر إنسانيته بين الحين والحين، فمهما كان الجرم فهو يتعامل مع إنسان.. أنا أيضا لا أحب من يستغل عمله ويتمادى فيه حتى يظن أنه يتعامل مع بهائم، ثم إن...

قاطعتني وقد بدأت أفقد الأمل في حديثها:

ـ لم يكن الأمر مهما.. عرفت أكثر.

ـ بالطبع.. بالطبع..

كدت أخطئ وأقول " فأنت بنت كار". وأضفت:

ـ المهم أن كل شيء قد انتهى..

ـ لا شـيء ينتهـي أبـدا، ومع هـذا لا بأس أن نتوهم النهاية لأي شيء.

وقبل أن أحاول فهم ما قالته للتو، سألتني وكأنها تهمس: تحب أن تعرف ما حدث في بن يعقوب؟.

حركت رأسي صعودا ونزولا "أي نعم".

ـ ولكنك لن تفهم ما حدث هناك، إن لم تعرف سبب زيارتنا، أنا وقدور، لبن يعقوب.

ـ أملك كل الوقت لذلك.

قلت وأملت أن تبدأ في روايتها. لكنها علقت:

ـ صدقني لا أحد يملك كل الوقت، ولا حتى بعضه. هو الذي ملكنا حتى قبل أن نولد، ومع هذا لك أن تسـأل عن أي شـيء حتى ينقضـي هـذا اليوم. بعدهـا عليك أن تجد إجاباتك عند غيري، فلدي مـا قـد يشـغلني بقية العمر.. اسـأل.. أو ربما مـن الأفضل أن تدعني أقص عليك الأمر كما حدث فعلا.

بعدها استعادت صمتها حتى حطَّت الطائرة.

كانت سيارتها مركونة بحظيرة المطار. دعتني للركوب معها، قالت وهي تدير مفتاح المحرك: أين تريدنا أن نتحدث؟. أجبت بسذاجة: كما تحبين.

لم تمهلني وانطلقت دون أن تأبه أن تكون سيارتها مركونة منذ أزيد من شهر.

في الطريق لم تقل شيئا، ولكنها ما أن عرجت إلى شارع بيردو صاعدة، حتى علقت ساخرة: "إن كنت تملك سمعة، فقل لها الوداع". لم أفهم الأمر مباشرة، ولكني سرعان ما أدركت مغزى تعليقها وأنا أرى الواقفين على جانبي الطريق، وقد كانوا كثرا، يتطلعون إلينا وكأنهم اعتادوا على رؤيتنا من قبل. كانوا يبحلقون فينا وعلى وجوههم ما ينقش الفهم في رأس بليد، وإذ ذاك سمعتُني أعلق "وداعا أيتها السمعة".

دخلنا شقتها. أعدت قوة وشايا وغيرت ملابسها.

قالت وهي تجلس قبالتي: "لنبدأ في الحديث". وأضافت ضاحكة: " لعلك أول رجل يدخل شقتي ولا يشتهي غير الحديث"..
هي أيضا كانت أول امرأة أختلي بها ولا أطلب منها غير الكلام. وقبل أن أفكر من أين أبدأ بدأت في ليٍّ رقبة الماضي..

بـوح

-1-

يسهل السفر ليلا، حتى الموت يكون ألطف في الليل.

ومع هذا كانت رحلته إلى محافظة الشرطة أطول من المسافة بينها وبين منزله. لم يكن ليعلم وهو في طريقه إليها أنه يبدأ رحلة لن تنتهي إلا بعد أكثر من ثمانية عشر عاما، ليعود إلى بيت لم يسكنه أبدا. فبعد عشر سنوات من دخوله السجن، قرر والده أن يرحل إلى باش جراح. لم يكن ثمة من سبب محدد لقراره، عدا فارق الثمن بين المنزل القديم في ميسونيي وشقة باش جراح. وبالطبع لم يجد بلقاسم من يثنيه عن قراره، كما لم يجد من قبل من يمنعه حين باع طاولة الخضر التي كان يملكها في سوق ميسونيي والتي اشتراها بذهب زوجته.

ففي عام 1989 دخلت عائلة فراش باش جراح لأول مرة، لتقضي فيها ستة أعوام انتهت بقرار بلقاسم ببيع الشقة من جديد. لم يكن الأمر جديدا بالنسبة إليه ولا لعائلته التي اعتادت التنقل من منزل إلى منزل، ومن شقة إلى أخرى، حتى لم يعد في العاصمة كلها مكان لم يسكنوا فيه. جعلهم بلقاسم كالبدو الرحل، لا بحثا على كلأ وماء، بل هروبا من مدينيه الذين كلما أغلق بهم قائمة، اضطره الدين

أن يبدأ قائمة أخرى لتسعهم، وحين لا يسعه الدفع، وكان هذا حاله دائما، يبيع شقته ويشترى أخرى بأقل سعر، وهكذا يستفيد من الفارق لتسديد ديون القمار والعاهرات.

في هذه المرة كان دافعه أن يجد لنفسه وأولاده مصدر رزق دائم، فلم يبق معه من الذكور إلا السايح الذي لم يكن حينها يعمل في شيء، وأربع بنات أجلستهن العنوسة على حجرها. قال لهم أنه سيوظف المال في عمل مربح، فإذا استقر الحال اشترى شقة أخرى، وإلى ذلك الحين يكترون أي منزل في باش الجراح. حاول السايح أن يعترض، ولكن القرار لم يكن بيده. ليبيع أبوه الشقة ويضيّع ثمنها في سنتين، وليجد السايح نفسه مجبرا، حين بدأ يعمل، أن يدفع جل أجره في إيجار البيت.

وإلى ذلك البيت المؤجر عاد قدور..

لم يسعد أحد بعودته بقدر ما سعدت أمه وأخوه السايح.. أمه لأنها أمه، أما السايح فلأنه وجد أخيرا معينا له على أعباء الدار، ليجد قدور نفسه بعد سنتين من خروجه من السجن المعيل الوحيد للعائلة بعدما انسحب أخوه السايح إلى حياة جديدة كان يتحين الفرص ليبدأها. لا أقصد حياة الزير الذي كانه، فلطالما كان زير نساء دون أن يمنعه ذلك من واجباته تجاه عائلته. ومن نسائه كنت الوحيدة التي تتقاضى أجرا، حتى حين كان يزورني بغاية الكلام والفضفضة كنت آخذ المقابل. كان هذا عملي وظل كذلك حتى بعد أن وقعنا في حب بعضنا.

اشتغل قدور عتالا في سوق باش جراح، فلم يكن يرى نفسه يصلح لأي شيء آخر، أو ربما كان يخشى أن يصلح لأي شيء، وهو الذي قرر الانقطاع عن الحلم، رغم أن أحلامه ما جعلته يصمد ثمانية

عشر عاما خبر فيها كل شيء، ولكنه في المقابل كان يدرك أنه وإن أبقته الأحلام الصغيرة مستمرا، فإن التمادي فيها سيقبره. كان هذا ما منع الصدمة عنه وهو يرى ما آلت إليه عائلته..

ورغم ما وجد نفسه فيه لم يأبه. تقبل الوضع وتأقلم. لم يكن ثمة من شيء يحسن فعله أكثر من التأقلم. علمته سنوات السجن أن يقبل الواقع كما هو ويسير وفقه، لذلك حين استتب له الأمر فيه ولم يعد يخشى على نفسه شيئا أو أحدا، قرر أن يبدأ من جديد.

كان من الغريب أن يفكر من كان في وضعه بما فكر فيه، ولكنه قدور، يجعل من المستحيل ممكنا ويتواضع أمام الممكن وهو مدرك ألا شيء يحصل قبل حصوله.

لا أحد يعلم ما الذي جعله بعد اثنتي عشرة عاما من السجن يفكر في التعلم من جديد، حتى هو حين راودته الفكرة سخر من نفسه. لم يكن وقتها قادرا على قراءة جملة دون أن يتلعثم، ولكنه كان يشعر بسحر الحروف، بقدرتها أن تخترق الجدران، أن تقفز فوق أسوار السجن إلى حيث كانت أمه. كان يشعر بقدرتها على منحه عمرا آخر غير الذي ابتلعه السجن، أن ترفعه إلى السماء أو تنزله إلى الجحيم. ولعل شعوره هذا ما جعله يأمل أن يتمرد ذات يوم على ذاكرته، ويصنع لنفسه ذكريات أخرى غير التي نقشها التيه في رأسه. بالطبع لم يكن متأكدا من قدرة الحروف على فعل كل هذا، فلم يكن الأمر أكثر من شعور اجتاحه وهو يرى بعض المساجين يتلهون بقراءة جريدة مهربة أو كتاب قديم. ولكن ماذا كان ليخسر؟.. الأكيد أن من لا يملك شيئا.. لا يخسر أي شيء.

تقدم بطلب لإدارة السجن ليعمل في المكتبة. حين بلغ مدير السجن طلبه علّق ساخرا "أعمى يريد العمل حلاقا"، ومع هذا قبل

الطلب والتحق قدور بالمكتبة أين وجد فيها ما أمل و.. أكثر.

وفي الكتب وجد ما كان يصبو إليه، فبمجرد أن أجاد القراءة حتى وجد نفسه أسيرها، فبفضلها أمل من جديد. أدرك أن العالم أكبر، أجمل، ألطف من كل حلم راوده يوما. تحرر من سجنه، كسر أغلاله، وأحيانا كان يعيش طفولة تركها ذات يوم على عتبة السجن. حتى أنه وجد فيها أبا يحبه ويحب أمه. وفي غمرة ما كان يعيش تصور شكل الحب، فعدا ما كان يراه في عيني أمه ويسمعه من كلامها، لم يعرف الحب أبدا. أما في كتبه تلك استطاع أن يرى الحب بأشكال مختلفة، ولكنها في النهاية تتقاطع عند هذا الشكل البدائي الذي كانت أمه تجسده. ومع هذا، ورغم ما وجد على صفحات كتبه، لم يستطع أن يجد وصفة تقتل الحقد الذي كبر معه. وتماما كما كان للحب شكل في رأسه، كان للحقد شكل.. شكله هو.

حين أعياه البحث توقف، ليدرك في الأخير ألا طائل من المحاولة. لم يكن له من سبيل إلا أن يتعايش مع حقده على نفسه. ربما لهذا تعاطف مع عمل السايح ونفذ وصيته. لهذا ربما اختار السايح قدور ليتم عمله، فلم تكن سيرة الوافد بن عباد إلا سيرة للحقد، عن الحقد الذي به استطاع أن يستمر ذكره ويعيش. ولعل الحقد من اختار قدور ليكون المنفذ لوصيته.

تسألني من يكون الوافد؟.. أسألك: ومن نكون نحن؟.. لا يهم الآن أن أجيبك أو تجيبني، كل ما يهم حكاية هذا الرجل الذي أحببت، ومع هذا سيحين وقت الوافد ما دام هو من قتله.. لم يخنقه، لم يطعنه ولم يمسه حتى، ولكنه قتله، تماما كما قتلني وسيقتل كل من يؤمن به، ففي النهاية سيكون آخر الإيمان، هذا إن كان للإيمان آخر.

عند خروجه من السجن كان في الثامنة والعشرين من عمره. قضى بعدها تسعة أعوام عبدا لعائلته، لم يكن مسموحا له بالتوقف أو حتى بالتفكير فيما هو قادم. تشابهت أيامه حتى غدت يوما واحدا غاية في الطول، ولولا الليل الذي كان يقطعها لما أدرك أن الوقت يمر. لم يتمرد.. لم يثر، أمل فقط أن يحدث شيء، غير الليل، يقطع أيامه، وما كان له أن يأمل أكثر من ذلك وإن شاء، فليس أخطر من الأحلام في وطن يرغب عنها. لم يكن أعمى لئلا يرى أبناء جيله كيف أصبحوا، وكأن الوقت الذي توقف عنده وهو في السجن، توقف أيضا خارجه.

بالطبع، لم يكن ليفكر أن الجديد سيحمله أخوه السايح، فرغم حبه له لم يكن يراه إلا زير نساء، هاوي سياحة. وكذلك كان السايح في أعين الناس ممن عرف ولم يعرف. وبالفعل كان السايح زير نساء ولكنه كان أيضا باحث حقيقة.. حقيقة جعلته يهمل عائلته، يهمل عمله والأخطر أنها جعلته يهمل نفسه.

لطالما حاول أن يوهمني أنه لا يهتم برأي الناس فيه، ولكنني كنت أعلم أنه يهتم برأي قدور. ولشد ما كان يأمل أن يمد الله في عمره لئلا يزج بأخيه في مغامرته، ولكنه بعد أن علم أنه مصاب بالسيدا بدأ يعد نفسه ليخبره بحقيقة ما كان يبحث عنه، ولكنه لم يستطع. فقد كان الأمر أخطر من حديث يفضي به أو وصية يوصي بها أن تنفذ. لذلك كان عليه أن يدفع قدور ليسير على الدرب الذي سار عليه. كان يثق بذكائه في رؤية الصورة كاملة، فلم تكن عصامية قدور خافية عنه حتى وإن لم يصارحه. احترم قرار أخيه في إخفاء سر تعلمه، لم يفهم أبدا رغبته تلك، ولكنه احترمها، ومع ذلك كان يتشيطن عليه بين الحين والحين، فيضع أمامه بعض الكتب التي

تستهويه، ولم يكن قدور يحب أكثر من الشعر، وحين يأمن ألا أحد يراقبه يتصفحها، والسايح يستمتع ضاحكا.

وبقدر ما أحبه ورأف عليه من أن يتحمل عبء أبحاثه، بقدر ما وثق فيه ليحمله إياها.

لم أكن وقتها أعلم شيئا عن أبحاث السايح، فقد كنت كغيري أراه كما يرونه، ولولا نهاية الرحلة لما أدركت من هو السايح فعلا. فلم يكن في بداية علاقتنا أكثر من زبون يزورني مرة أو مرتين في الأسبوع. وفي كل مرة يعطيني أكثر من أجري. كان يعاملني بلطف، حتى أشعر أحيانا أنني حبيبته أو زوجته، وفي كل مرة يزورني يحمل معه هدية وأحيانا باقة ورد ويسألني ببراءة عن أحوالي وكأنه يهتم.. لا، كان يهتم فعلا، فلم أكن بالنسبة إليه مجرد عاهر، كنت إنسانا أيضا. وفي هذا اشترك مع أخيه، ولكنه على خلاف قدور كان يشعرني بقذارتي، ليس بكلامه أو معاملته، فلشد ما كان لبقا معي، ولكنني كنت أشعر بذلك كلما انتهينا من المضاجعة. لا أعرف كيف أصف الأمر.. ربما في نظراته، في قبلاته، في لمسه لي.. لا أدري بالضبط، ولكني شعرت معه أنني عاهر. أما مع قدور، فكان الأمر مختلفا. ربما.. ربما لأنه وإن لم يقلها.. أحبني.

قضى السايح أربعة أشهر على فراش المرض. رفض أن يكشف عليه أي طبيب. زعم لعائلته أنه مصاب بالتهاب الكبد الفيروسي، فقد كان يخشى أن يجزعوا إذا علموا بحقيقة مرضه، فلطالما كان خوفه من الرفض ما يرسم قراراته، وكان الرفض أيضا ما جعله يهتم بسيرة الوافد ويعطيها آخر أعوام حياته. ورغم ذلك فقد كان عمله خيارا قام به، تماما كإصابته بالسيدا. على عكس قدور الذي لم يختر في حياته شيئا، فلا هو اختار السجن ولا هو اختار ما حدث لاحقا.

ولكن أليس هذا حالنا جميعا، أحقا نملك مثلما نزعم خياراتنا؟.. نبدأ حياتنا دون خيار وتنتهي دون أن نرغب في نهايتها، ونعيش بأسماء لم نخترها وبعائلة فرضت علينا، حتى أجسادنا التي نقضي فيها أعمارنا لا تكـون أبـدا باختيارنـا؟ أليس الخيار فـي نهاية المطاف مجرد وهم خلقنـاه لنعطـي حياتنـا أي طعـم؟ أليـس مجرد سـراب نتبعه أملا في النجاة، أملا في حياة أفضل دائما مما هي عليه فعلا؟!..

كان السايح مدركا لهذا الوهم لذلك لم يكن مؤمنا بالعقاب أو الجـزاء. كان يقـول معلقـا كلما جادلته: ".. عقاب؟!.. على أي شـيء نعاقب؟ على أفعال فرضت علينا أم على حياة لم نقررها حقيقة، ثم ما الذي سيعاقب: جسدي الذي سيأكله الدود ويؤول إلى رماد، أم روحي التي يقال أنها من الله.. أيعقل أن يعاقب الله نفسه؟". كان جريئا في السؤال وأجرأ في الإجابة، ومع هذا لم يكن متأكدا، فقرون اليقين التي ورثناها لم تسـمح له إلا بالشـك والشـك في شـكه من جديد. فحينها لـم يكـن قـد عرف الوافد، وحتى حين حضـره الموت كان بين بين.. لا يـدري.. لا يعلـم. وحـده قدور من انتهى إلى الحقيقة، وفهم أخيرا صفة المشـيئة.. لم تكن سـادية كما تصورها بوعلام ولا عبثية مثللما خالها السايح. كانت عادلة بمطلقها، ولأننا لا نفهم المطلق نصفها بأي شيء، حتى حسبنا لمحدودية فهمنا أن لاحدية العدالة ظلم أو عبث. حتى أنا وقد قرأت كتاب قدور لم أفهم كل شـيء، فما زلت أجسـد العدالة في شـيء أعرفه، لم أسـتطع كقدور أن أتخلص من التجسـيد لأكوّن فكرة عما أراده الوافد منا، ولعل هذا ما جعل المشـيئة تختار قـدور ليكتـب طلقتهـا الأخيرة، وليموت بعدها ويختفي جسـده، حتى إذا ذكرناه لا نذكره أبدا في قبر يضمه وفي جثة سخيفة، كريهة تمنح الموت هيبة نتخيلها.. ما الموت إلا طلقة أخرى في حياة تستمر.

لـم تكـن جنازة السـايح مهيبة، كانـت كأي جنازة لرجل قطعت جذوره، ولولا بعض شحاذي الحسنات لسار وحيدا إلى قبره، تماما كمـا كان فـي حياتـه. غاب عنها بوعلام الذي كان يقاتل تيها حاصره فـي بـن يعقـوب، وحبوب صديقه من أيام الخدمة العسـكرية وحافظ أسراره لم يعلم بموته إلا متأخرا. أما الأحباء فلم يملك سواي، وأنا لا أحد لأحضر جنازته.

حيـن تناهـى إلـيَّ خبر موت السـايح لم أحزن، ربما لأنني كنت أعرف مآله منذ مدة، منذ أخبرني بمرضه، حتى بوعلام كان مسـتعدا لرحيلـه، فلـم يكـن خبر رحيله إلا تحصيـل حاصل. وحده قدور من حزن.. وحده من تفاجأ، ووحده أيضا من قرر أن يعيد الحياة للسايح بعـد رحيلـه. فقبـل يومين من موته أخبره السـايح بمهمته. لم يشـرح له شيئا، وفي ظنه أن قدور قادر على تركيب الصورة ورسـمها كما هو مقرر لها. قال له بصوت خافت حاصره الصمت: "أنت وريثي.. وحدك ستنهي عملي". سأله بتردد: "عن أي إرث تتحدث؟"، لم يجبه واكتفـى بالإشـارة لـه لينحنـي أكثر، فلم يكن السـايح قـادرا أن يمنح صوته قوة أكبر. خشـي أن تضيع كلماته وقد كان يعلم أنها سـتكون الأخيـرة.. "سـيأتيك أحدهـم بأمانـة.. بعملي.. اقـرأه أولا.. ثم قرر". ثم خاط الصمت فمه لينتهي. أو هذا ما ظنه قدور وهو يرى السايح يغمض عينيه، وهذا ما تأكد منه حين توقف قلبه عن الخفقان. ولكنه بعد أن قرأ عمل السايح فهم أن الانتهاء الذي افترضه لم يكن إلا حيلة من حيل السـايح. أدرك أنه سـيظل حيا فيه، برغبته، بطموحه، بجنونه وبصدقه أيضا. لم يكن إرث قدور مجرد أوراق حفظها عندي.. لقد كنـت دون أن أدري بعـض هـذا الإرث. وكان الإرث كلـه أعظم مما كنا نتصور.

عـاد قـدور بعدهـا إلى حياتـه. عتالا كما أحـب أن يكون. وفي سـوق بـاش جـراح حيـث كان يتحايـل علـى شـقائه رأيتـه أول مرة. كان يجلـس فـي مدخـل السـوق بلبـاس العمـل المتسـخة والحائلة، جاعـلا عربتـه متـكأ لـه، فيكتريه أصحاب طاولات الخضر والسـمك أو يستأجره أصحاب الشاحنات لنقل السلع من وإلى داخل السوق. وأحيانا حين يشح العمل بعد الزوال، يدفع بعربته ويسير على قدميه حتى وادي السـمار حيث محلات الجملة ليعمل في تنزيل البضائع. لم يكن يهمه ما يجنيه بقدر ما كان مشغولا بإجهاد جسده. فلشد ما كان أكبر همه أن يعود إلى المنزل متعبا ليأكل وينام، فلم يكن أخطر عليه من الليل ووساوسـه، لهذا كان يجهد نفسـه حتى إذا جن الليل تحايل على وساوسه بالنوم.

هناك رأيته أول مرة، وهناك بدأت قصتنا ودخلت عالمه الموبوء بالحقد. لم يكن الأمر سـهلا أن تطلب من كسـيح أن يسـير، ولا من كفيف ألا يثق بغير الظلمة، وبقدر ما كان الأمر مجهدا، بقدر ما كان بالنسبة إلي تحد من نوع آخر. كانت تلك أول مرة ألتقي فيها برجل يتحكم في شهوته، يضطهد رغباته حتى تذعن له. لم يخف لحظة أن يتمرد عليه جسـده العملاق فيخضع لإغوائي. ومع هذا كان كالطفل في كل شيء. لم أفهم أبدا كيف أبقى على براءته بعد كل الذي عاشه. حتى الملائكة كانت لتطمس نوريتها لو عاشت ما عاش، أما هو فكان رغم حقده طيبا، إنسانا لا يقدر إلا على المنح.

أصبحنـا صديقيـن نقتسـم الكلام، ثـم حبيبين يجمعنـا الفراش، وفـي النهايـة تحـول مـا بيننا إلـى ما هو أقدس من الـزواج، ولم يعد الجنـس أكثـر مـن لحظة روحية يتوحد فيها جسـدانا. كان الأمر أبعد ما يكون عن الرغبة والشـهوة، كان مقدسـا كالخشـوع. كلحظة حلول

إلهية تتقمصنا فيها الحكمة حتى يذوب الجسد في رحابها، ويصير دون أن نقرر مجرد إناء تفيض منه روحانا. لم أشعر بذلك مع أي رجل، ولا أظن أن ثمة امرأة شعرت بما شعرت به. شعور يستعصى على الفهم.. ببساطة لأنه حد الشعور.

ربما لهذا لم يفكر قدور في الزواج. أدرك ألا قداسة فيه إلا ما أضفيناه عليه من قداسة، وليس في النهاية أكثر من دعارة مقنَّنة.. ألا يبدأ كل زواج بمقابل يقدم أجرا للمتعة؟؟.. ألا ينتهي أيضا بمقابل يمنح كنهاية خدمة، فما الفرق بينه وبين عملي: الاسم أم الوثيقة؟!..

ومع هذا ما استطعت أن أتخلص مثل قدور من رغبتي في الزواج منه. لم أستطع حتى بعد قراءة كتابه أن أحلق مثلما كان يحلق، ولطالما حاول دون جدوى أن يجعلني مثله، ليدرك في الأخير ألا طائل من المحاولة، ويأمرني ألا أقرأ كتابه من بعده. ولكنني خالفته وقرأته.. ليتني لم أفعل.. ليتني.

-2-

وتتالـت الميتـات علـى قـدور. رحـل أبـوه أولا، لتلحـق به أمه أشهرا بعد ذلك. وبموت أمه انطفأت آخر أضوائه، وكأنها كانت آخر علّاقات أمله.. آخر مصدر للأمل في حياته. وإثر موتها كثرت زياراته لـي، حتـى غـدا يزورني كل يوم. أحيانا يقضي الليلة معي وأحيانا لا. ثم ما لبث أن توقف عن العمل وقرر أن ينعتق من عبوديته.

رغـم كل الوقـت الـذي كنـا نقضيه معا لم يطلعنـي على قراره. ربما كانت تلك طريقته في رسـم الحدود بين عالمين قرر أن ينقطع لأحدهما دون الآخر. ومع ذلك شعرت بلا قيمتي قي قراراته، لم أكن لأتفهم حينها أسـبابه، ولعلني لوهلة فكرت أنه ككل الرجال.. لوهلة فقط، فلطالما كنت أعلم بتفرده وبلا قابليته للتشبه. وكأن الطينة التي تشكل منها لم يتشكل منها سواه.

حدسـت أنه يفكر في أمر مهم، وأنا أرى أرقه كل ليلة. أسـأله فلا يجيب، وحين ألح يقول "لا شيء".

فـي الحقيقـة لـم يكـن راغبا أن يحملني وزر مـا قرر، لم يردني أن أعلـم فأثنيـه. عـزم أن يلقي بعبئه على أشـقائه المتزوجين. هاتفهم ليخبرهـم أنـه لـم يعد قادرا على الاعتناء بشـقيقاته الأربع. ألقى على أوجههـم قنبلتـه دون أن ينتظـر ردهـم، فلم يكن يعتبـر أن قراره قابل للمراجعة ولم يكن بقدورهم أن يناقشوه.

لـم يأخـذ شـيئا مـن المنزل المؤجـر، حتى ملابسـه تركها هناك.

فضل أن يسير دون أن ينظر خلفه. وكأنه خشي أن تحمله الشفقة على مراجعة ما عزم عليه، ومن هناك جاءني وأخبرني بالأمر. أحببت أن أأنبه ولكنني تذكرت ترددي حين قبلت وصية أبي، حين لم أملك القوة لقول "لا"، لأجدني على عتبة الأربعين بوحدتي. لم تشفع لي عند إخوتي تضحياتي من أجلهم، حتى دراستي بالجامعة تركتها ليأكلوا.. نبذوني بمجرد أن أنبتوا أجنحة ولم أعد عندهم إلا العاهر التي يجب محوها من الذكريات. ألم يكن هذا العار كما وصفوه ما يملأ بطونهم، ألم يكن هو ما ألبسهم، دفّأهم وسقى أحلامهم حتى حلّقوا.. ومع هذا لم أحقد عليهم، فما نحن إلا نتاج مجتمع منافق.

ومن ذلك الوقت وقدور يقيم معي، لم نفترق إلا حين كان يسافر إلى تندوف أو إلى الجلفة. نادرا ما كنت أسافر معه إلى الرابوني، ولم يحدث أبدا أن سألته عن سبب سفرياته، فمنذ أن سلمته ظرف أخيه لم يعد قدور الذي عرفت. توقف عن الشرود وطلّق صمته، حتى رغبته فيّ تزايدت ولم تخبُ إلا في آخر ثلاثة أشهر قبل وفاته، حين بدأ يدوِّن ملاحظاته وملاحظات أخيه. اختار لنفسه في شقتي غرفة جهزها لتكون مكتبه. يدخلها كل فجر ولا يخرج منها إلا لقضاء حاجته أو حين ألح عليه أن ينام إذا انتصف الليل. وحين كان يخرج لقضاء أمر يغلق الغرفة بالمفتاح، وكأنه كان يخشى أن أطلع على كتاباته. استمر في ذلك قرابة الثلاثة أشهر لم يقربني فيها قط. ورغم رغبتي فيه لم أسأله مرة أن يقربني، فلم يعد الجنس ما يجمعنا. كنت مكتفية به كيفما كان. أقسم لو أنه كان عاجزا لاكتفيت به. كان يكفيني أن أراه لتمتلئ عليّ الدنيا، لأنحل في نظراته وأتحلّل كحبة ملح يعانقها الماء.

ما زلت أذكر ليلة انتهى من عمله. دخل غرفة نومنا دون أن أشعر

به، كنت ساعتها أستعد للنوم. مسح بيده على شعري حتى فتحت عينيّ على وجهه. ظل يبحلق فيّ من غير أن ينبس بكلمة وأنا مشلولة، تائهة في عينيه الضيقتين، أحاول أن أرى فيهما وجهي، فأنعكس في حدقتيه طفلة تحملني البراءة على أمواجها.. يا إلهي كم كنت جميلة لحظتها وأنا أراني فيهما أكبر ليضمني إليه، وأضع يدي على ساقه فأستفيق من دهشتي على جبروت الرغبة أستحلي نهشها لي. ولا أكاد أرفع راياتي وأستسلم حتى يعاودني أمل الانتصار وأمتنع، وهو لا يكف عن محاصرتي، لأنتهي تحته جسدا تعتريه الرعشة ويكبله الخضوع، فيفترسني المرة تلو الأخرى، حتى إذا انتهى أنتهي.. وليس فينا منهزم.

تلك الليلة لم ننم، كانت النار لا تكاد تخبو فينا حتى تشتعل من جديد. لم نقل لبعضنا غير النظرات، ولم نتحدث غير حديث الجسد. وعلى عتبة الصباح نمنا مجبرين.

عشنا بعدها أسبوعا لا عمل لنا غير الحب، حتى قرر أن نسافر معا إلى الرابوني. قال لي أن لديه أمرا عالقا هناك عليه أن يسويه. ولأول مرة أخبرني بطبيعة عمله، وكيف أنه تمكن أن يفهم الوثائق التي تركها له أخوه. لحظتها لم أستوعب الأمر جيدا، ولم ألتقط إلا أسماء سبق له أن ذكرها أمامي: الوافد بن عباد، خلقون، زمردك، أكيلا ورجل فرنسي يدعى سيباستيان دي لاكروا. فهمت عنه أن هذا من أعاد اكتشاف الوافد بن عباد وجمع معظم سيرته التي دونها تلميذه خلقون.

في طريقنا سألته مجددا عن هذا الوافد فابتسم وركن إلى الصمت، وحين يئست من جوابه بادرني بالحديث:

ـ ماذا كان ليحدث لو اكتشفت فجأة أن أباك ليس أباك؟

كان ليتملكني الضحك من سؤاله لو لم أر أنه جاد في حديثه. حاولت أن أمتنع عن الجواب ولكنه لم يمهلني وسألني من جديد. قلت وكان هذا ما خطر في بالي ساعتها: "حتما سأبحث عن أبي الحقيقي". ابتسم وكأن إجابتي أرضته، وعلق "إذن، فأنا لم أخطئ". حاولت أن أستفهم منه ولكنه امتنع عن الإجابة.

خطر لي ساعتها أنه يتفوه بأي شيء. كان مجرد خاطر سخيف لأنني كنت أعلم أنه لا يقول شيئا لا يعنيه. كنت أعلم في قرار نفسي أن لاستنتاجه ذاك علاقة بسؤالي عن الوافد. ليتبين لي لاحقا بعدما قرأت كتابه حقيقة ما كان يعنيه. لم يكن الوافد إلا بحثا عن أب غيبه التاريخ، وأده الندم ووارته الكبرياء العمياء الثرى. وما كان إيجاده ليعني أي شيء لو توقف الأمر عند البحث عنه فحسب. أدركت ذلك وأنا أقف عند ما يمكن أن يقترفه الخوف من الحقيقة، لما عمد الشيخ النوي وصبيانه إلى رجم قدور في بن يعقوب. فحين قرر قدور العودة إلى بن يعقوب برا، حاول أن يمنعني من السفر معه. قال لي أن الوضع قد يكون خطرا، لم أهتم وألححت عليه حتى قَبِل أن أرافقه. سألته عن سبب الزيارة فأخبرني أنه نسي ملاحظات سيباستيان دي لاكروا في دار البراني وأن كتابه سيكون بلا أي معنى لو لم يفسر وفق تلك الملاحظات. وكانت دار البراني منزلا عثر عليه السايح منذ سنوات في بن يعقوب. يقال أنه لولي صالح تعود أصوله إلى تندوف. وكان قدور قبلها قد نقل سرا كل موجودات الدار وجعلها في ذمة رجال يعرفهم.

لم يظهر لي سبب خوف قدور من زيارة تلك الدار، ولم أتبين الخطر الذي حذَّرني منه، والذي جعله يرفض حين بلغنا بن يعقوب أن أصحبه إليها.

كان حذرا ولكن حذره لم ينجه من الموت، فبجرد أن دخل الدار حتى حاصره صبية وشباب يأمرهم الشيخ النوي. أغلقوا عليه الباب بالسلاسل ووقفوا عند كل منافذها حتى قدم الشيخ. سأله أن يعيد ما نقله وتسليم كل أوراق السايح، فأبى قدور. لقد كان مستعدا أن يموت ولا يموت سر السايح. وحين يئس الشيخ منه، أمر صبيته بإضرام النار في الدار ففعلوا، وهم يظنون أن تمنعه النار والباب الموصدة من الخروج، ولكنهم تفاجأوا به يكسر الباب ويواجههم بيديه. لم يكن بمقدورهم أن يدركوا أنهم يواجهون من لم يرهبه السجن بزنازينه وبريفواته ووحشيته، والأكيد لم يعلموا أنهم يصارعون الحقد المتجسِّد فيه.

لم يستفيقوا إلا وقد تجاوزهم، يعدو في اتجاه سيارة الأجرة التي اكتريناها من الجلفة المدينة، فأخذوا يرجمونه وهو غير آبه برجمهم، لا يكاد يشعر بمئات الحجارة التي أصابته في كامل جسده، حتى إذا ركب السيارة واطمأن أنه لم يعد بمقدورهم اللحاق بنا خر صريعا. كانت تلك أول مرة أراه يصرخ من الألم، أول مرة يُظهر فيها ضعفه. ومع هذا بقي صامدا حتى عدنا إلى الرابوني.

هناك سلمني مخطوطته وأوراق أخيه، وأوصاني أن أسعى في نشرها.

ما زلت أذكر ليلة رحل. كنا بمفردنا، لا نفعل إلا النظر إلى بعضنا. لم يكن ثمة من شك، بالنسبة إليّ، أنه سيموت تلك الليلة. سألته بحرقة: "تموت.. وتتركني؟". ابتسم وكأن ألم جلده المحترق والمجروح توقف، ثم ضغط على يدي كما لم يفعل أبدا وقال: "بل سأحيى ونلتقي. حين يأتي أجلك سترين ألا نهاية في الموت". وبقيت مدة أبكي في صمت، ولولا الشهيق الذي كان يصدر مني

لكان السكون أكثر ضجيجا. وفي لحظة شعرت بيده من جديد تضغط أكثر، ثم تراخت شيئاً فشيئاً، فعرفت أنها النهاية. ولولا ارتخاء يده لما شعرت بموته، فقد بقي حتى بعد موته يحدق في وجهي مبتسما، تماما كما كان يحدق فيَّ سابقا كلما رغب في أن نتغازل. ولكن ابتسامته تلك كانت أطيب.. ألذ.. أصدق مما اعتدت رؤيته على وجهه.

أدركت وأنا أراه كذلك أنه استراح أخيرا. لم يكن موته موتا. لم يكن نهاية أي شيء غير نهاية شقائه. ففي تلك اللحظة بالذات استطاع أن يتخلص من حقده، فلطالما علم ألا خلاص له منه بغير الموت.

رائحة

لم تجبني نوى عن شيء.. تحدثت وتحدثت ولكنها تركت أسئلتي معلقة، ولعلها أضافت إليها أخرى. ومع هذا لم يكن بمقدوري أن أسألها المزيد.

خرجت من عندها مرهقا، ليس بسبب السفر والجوع وساعات حديث طوال، بل لتيه دخلت أزقته برضاي. ألم أكن قادرا أن أتوقف عن البحث وأرضى بما كان سيرضيني قبل أيام؟.. ما الذي دفعني لأخوض في حرب الخرافات تلك وأنظر في عش الدبابير؟..

لم يعد الأمر يحتمل المزيد من الأسئلة، ولا الندم كان ليعيدني إلى الخلف، ومع هذا ما كنت لأختار، لو خُيِّرْتُ، غير الدرب الذي سلكته بحثا عن حقيقة ما كادت تنتهي بين يديّ حتى اختفت كأنها لم تكن.. لم يكن الأمر بيدي لأندم على تضييعه. حاولت.. سألت وانتهيت إلى هذا الزقاق المظلم وحيدا كما بدأت. لعل قدور كان وحده من عرف الإجابة، ووحده من أدرك كيف يجعل الموت مطواعا ليركبه إلى العالم الآخر دون خوف..

وعلى هذا افترقنا أنا ونوى. لم نلتق بعدها أبدا، فقد اختفت كما حقيقتها.. كما جثة قدور التي اختفت حسب ما أخبرتني، لأعلم حين حاولت اقتفاءها أنها باعت شقتها وسافرت خارج الوطن.

وعدت إلى حياتي من جديد. كان من الظريف أن أعود إليّ

كما تركتُني أول مرة، وكأن شيئا لم يقضم من عمري فأقضي ستة أعوام خارج الزمن. عدت النذل الذي كنته أول مرة: بطن لا تشبع وعين لا يملؤها إلا التراب. أوفى صديقي بوعده فعيّنت في الميناء، حيث العسل ولا شيء غير العسل، أغرف منه كما أريد ووقتما أشاء. بالطبع لم أكن قي ذلك وحدي، كنت حلقة نكرة في سلسلة لا تعرف أولها ولا تدري أين تنتهي. وخلت في زحمة حياتي تلك أنني نسيت نوى وحكايتها، حتى لم يعد ما وقع في بن يعقوب إلا ذكرى تسليني وندمائي حين ينتهي الكلام وننقب في الذكريات.

أمضيت سنة على هذه الحال حتى جاء أمر نقلي من الميناء إلى المحافظة الخامسة والعشرين بباش جراح. أخبرني صديقي أنه هو من أوصى بنقلي خوفا عليّ بعدما كثر القيل والقال حولي، لأعود إلى حياة الأجر مرة أخرى. لم يكن الأمر سيئا هذه المرة، فالسنة التي قضيتها في الميناء عوَّضتني على السنوات الست التي أهدرتها في الإدريسية والأعوام التي سأهدرها حتى يحين تقاعدي. كنت راضيا على صديقي وكان هذا راضيا علي.

ومضت سنة أخرى لم يحدث فيها شيء يذكرني بها، طرحها العمر كما تطرح الحية جلدها، فلم يعد في حياتي ما يسعد أو يحزن.. حتى الشغف الذي كان يمنحني القوة خبا وكأنه لم يكن في حياتي قطّ. ومع هذا ما زلت أذكره، أقصد شغفي، كما أذكر حين عاودني وأنا أبحث عن نوى وقدور، وأنا أتحرق شوقا لأعرف حقيقة ما جرى. أدركت ساعتها أن شغفي لم يمت، ما زال فيّ وإن أرغمته أنا أو غيري أو الأيام أن يختفي. يظهر حين أحتاجه ويختفي حين أكذب على نفسي وأوهمها ألا حاجة لها به. تماما مثل الله في ذواتنا، نعلم أنه فينا.. حولنا.. معنا، فنستجديه كلما ألمت بنا أي

مصيبـة، ثـم إذا فرجـت نتناءى عنه، ونزعم أننا مثله، وحين يتمنّع عنا التألُّه، نشطبه من حياتنا صارخين بلا صوت: "مات الله.. مات الله"، حتى إذا صدى الصوت في داخلنا، حاصره اليقين الذي نسره، خجلا من ضآلتنا، لنرضخ بحقيقة أنه حي.

كان شـغفي كذلك..كان في داخلي. ربما انتابني الشـك أحيانا ولكننـي كنـت مؤمنـا دائمـا بوجـوده. حتى بعد أن عدت أسـير على حتفـي كنـت أعلـم أنـه في مـكان ما بداخلـي. كان يكفي أن يحدث شيء ليظهر مرة أخرى ويعيدني إلى الحياة، تماما مثلما فعل في تلك الصبيحـة حيـن جاءنـا أحـد يبلغ عن رائحة كريهـة تصدر من إحدى الشقق.

كانـت الشـقة تقع بالطابـق الثالث بالمدخل السـابع من العمارة السـابعة عشـر ببـاش جـراح. لم نكد نصل الطابـق الثاني حتى كادت النتانـة أن تصرعنـا. لـم يكـن عندنا من شـك أنها رائحـة جثة متعفنة منذ أيام. كسرنا الباب بعدما استدعينا سيارة مطافئ. ففوجئنا بمشهد جثة بدأت في التفسـخ، ومثلما بين تقرير الخبرة لاحقا، فقد كان قد مضـى ثلاثـة أشـهر على وفاتـه. كان الأمر غريبـا ألا يتفطن أحد إلى تلك الرائحة، فغالبا أنها بدت تنتشر منذ أكثر من شهرين، ولولا أنها زادت حدة لما اهتم أحد بالموضوع.

نقلـت الجثـة إلـى مصلحة حفظ الجثث، وبقيت رفقة شـرطيين في الشـقة لبداية التحقيق. جمعنا كل ما وجدناه من وثائق وحملناها إلى المحافظة بعد أن أتمت الشرطة العلمية عملها.

لـم نحتـج وقتا طويلا لمعرفة هوية الضحية: بوعلام عباس، 52 سنة، سائق طاكسي.

وأنا أقرأ بطاقة هويته استوقفني أمر مثير، فقد ولد بوعلام هذا

في بن يعقوب. لم أعر الأمر بالا ساعتها، حتى بدأت أتفحص الوثائق التي وجدناها في شقته: صور، وثائق سيارة، ورسائل مختلفة قرأتها كلها ولم أجد لها أي أهمية.

كان ثمة ظرف كبير يحتوي على أوراق مكتوبة بخط اليد، ظهر لي أنها صور لأصول لم تكن برفقتها وصفحات مبتورة من كتاب قديم عجزت عن قراءة الخط الذي كتبت به. لذلك أجلت تصفحها إلى حين أفرغ من قراءة الأوراق المكتوبة باليد التي لم تكن تحمل أي ترقيم، فكان من الصعب ترتيبها. وبجانب الجثة وجدنا رماد ورق محترق، كان من المستحيل إعادة تشكيله.

وكيفما شاء، أخذت أتصفح بعض الأوراق حتى وقعت على اسم بدا أنني سمعته من قبل.. سيباستيان دي لاكروا، لم أبذل جهدا لأتذكر أن نوى من ذكرته وهي تقص علي حكايتها. في تلك اللحظة أدركت أن الصدفة لم تعد خيطا أحيك به، فلم يكن من المعقول أن تجمع الصدفة "بن يعقوب" واسم هذا الرجل. لذلك قررت أن آخذ ما يلزم من وقت لأقرأ تلك الأوراق.

قضيت ساعات لأفهم منطق المخطوطة، ومع هذا بقيت بعض الصفحات في غير ترتيب، فخمنت أنها ملاحق وتركتها جانبا.

لم يعد الأمر يقبل أي تخمين، فقد كانت هذه مخطوطة الكتاب التي حدثتني عنها نوى..

"يا إلهي كيف جعلتها تصل إلي؟!". صرخت غير آبه أن يسمعني أحد، ولكنني كنت مطمئنا من أن أباغت بعد أن أغلقت باب المكتب بالمفتاح، وكأنني حُدست قبل جمع المخطوطة، أنها من الخطورة ما يجعل الحيطة واجبة.. ولكن علامَ أحتاط.. ولمَ؟.. أتراني صدقت اعترافات نوى وأوهامها أن قدور كتب ما قد يقلب العالم؟!. لم

يكـن الأمـر واضحا لحظتهـا، ولعلني أرجأت الإجابة إلى حين أنتهي من قراءة المخطوطة.

أعتـرف أنني تـرددت لحظـة فـي قراءتهـا، ولأول مرة فـي حياتي شـعرت بالخـوف. لا الخـوف ممـا سـأجده فيها بل مما لـن أجده، فقد كانت رغبتي في تصديق نوى أعظم حتى من الشغف الذي عاودني مع هذه القضية. خشيت أن أقرأها وأكتشف ألا شيء فيها فأضطر لأعود إلى حياة لا خلاص منها إلا بالموت.. بيني وبين نفسي كنت آمل أن يمنحني كتاب قدّور بعض الخلاص أو على الأقل يرشدني إلى الطريق.

كنـت خائفـا.. أعتـرف، وكان مصدر خوفي مشـهد جثة بوعلام عبـاس المتعفنـة، فلـم يكن الخلاص يعني لي أن تكون ميتتي كميتته، ولعـل الوضعيـة التـي وجدنا عليها جثته ما جعل خوفي أشـد.. مات جالسـا، ضامـا سـاقيه إلى صـدره وقد أحاطهما بذراعيـه. وبدا وكأنه يحدقِ في السقف أو ربما في السماء..

وفي لحظات الشـك تلك، عاودني حديث نوى: "من لا يملك شيئا لا يخسر أي شيء"، فشعرت وكأنني المقصود من جملتها تلك، لأجدني أفتح الكتاب على أول صفحة:

"أحاديث الوافد بن عباد..

الكتاب الأول

باب ما ترجمة سيباستيان دي لاكروا عن ألواح خلقون"

قضيت يومين في قراءته. لم أنم فيهما.. لم آكل.. لم أفعل شيئا غير القراءة. ومع آخر صفحة عرفت أخيرا غايتي.. والأكيد، أدركت أيضا غاية الوجود مني..

همس أخير

بالأمس هاتفني.

أخبرني أنه وجد ناشرا ويشترط أن أموّل النشر بمالي. أعلم أنه يكذب وأن حاجته ما تدفعه لابتزازي، ومع هذا سأتغابى وأدفع له ما يريد، ففي داخلي شيء يجعلني أصدق أنه سيفعلها.. سيتحدى شياطينه ذَات يوم وينشر الكتاب.

فقط.. لو يفعلها ويحررني كما تحرر قدور ساعة أودعني كتابه وانطفئ.

أتراه يفعلها ويخلصني من وِزري. أنا التي قرأت لعنتنا وألزمها الوعد ألا تصرخ بحقيقة من نحن ومن أين جئنا.. أنا التي أدركتُ كذبة غرسها الوهم.. تجذرت حقيقة مطلقة، حتى الوافد لم يستطع قلعها.

أحيانا أسألني: ما الغاية من كل هذا التستر؟.. أكان يضرنا أن نعلم ونستمر كيفما شاء، أم أن خوفنا من خوفنا ما يجعلنا نستمر؟.

لم يكن خطئي أن خلقت كما خلقت، لم يكن خيارا أردته أو أراده غيري لأحاكم أو يحاكموا على المجيء. إن كان ثمة من خطأ فليس لنا، فعلام إذن نخشى حقيقتنا التي بدأت بكذبة واستمرت كالخميرة تكبر، حتى انتهت إلينا عالما قبيحا أوّله الزيف وآخره الخوف من حقيقتنا، تلك التي ما كان لها أن تختفي لو أنه..

أأقولها وأفضحه.. هذا المنزه من كل ذنب أو خطيئة، إلا خطيئة المعرفة..

لـم تكـن تلـك أولـى خطاياه، على الأقل لم تكـن تلك آخرها. أعرف.. أعرف ما دمت أنا من قرأ كتاب قدور.. أدركت ألا خلاص لنـا إلا بكتابـة مـا شـطب فينا رغما عنا، إلا بكتابـة البداية من جديد، حين كان هذا المنزه من كل عيب وخطيئة يرتع كالبهائم لا يدري أنه ذات قرن سيكون أبانا الذي ستنفخ فيه المشيئة حتى يكون..

وكما أرادته المشيئة جاء، وكما أرادته أخطأ.. وكما أرادته رأى حقيقته.

حتى هو لم يخترع البداية، فلطالما كانت تلك قبله.

القسم الثاني

ملاحق

أنا ونوى

ربمــا أعملــت بعض الخيال فيما ســبق، ولكنني أقســم أن الأمر حدث كما وصفت.

لم تكن تلك كل الحكاية، وإن شئتم الدقة كانت آخر ما فيها، فأنــا لحــد هــذه الســاعة متــردد في كتابــة القصة كاملة، كمــا عرفتها.. ومتردد أكثر في نشر كتاب السايح. ومع هذا سأبدأ القصة لا لغرض النشــر، بــل لأســتريح مــن الحمل، هذا الذي جعلتنــي نوى أعدها أن أحمله عنها. بالطبع لم أكن أعرف وقتما اتصلت سبب اتصالها. كنت زبونــا قديمــا لديهــا، وانقطعــت عني أخبارها منذ تزوجــتُ. قالت إن الأمر مهم وصدقتها.

تواعدنــا أمــام البريد المركزي، ودخلنــا أول مقهى وجدناه. فلم أكــن راغبــا أن يرانــا أحــد معا، ووددت لو تنصلــت من موعدها، فلم أعد الأعزب الذي لا يهمه شيء ولا الطائش الذي كنتُه. ولكن نوى لــم تكــن كأي امــرأة مــرت في حياتي، والأكيد أنني لــم أتذكرها أبدا كعاهــرة، فلطالمــا أشــعرتني أنهــا أكثر من ذلــك، ولطالما اعتقدت أن عهرها كان مجرد عمل تقتات منه. ولولا ما أعرفه من خبث الرجال لقلت أنهم فكروا فيها كما فكرت دوما، وإن أجهروا غير ذلك.

ســألتني بلطــف عــن أحوالي فأجبتها صادقا، ثم ســألتها بدوري فأخبرتني أنها توقفت عن العمل. ســعدت لها في ســري، فقد كانت

نوى تستحق أن تحيى حياتها، وتستحق كل خير. وبقينا وقتا نتحدث في كل شيء وفي أي شيء. حتى إذا لم يبق ما نتحدث فيه سألتها عن سبب طلبها مقابلتي، فأخبرتني عن رغبتها في نشر كتاب، وكيف أنها تسعى منذ أشهر لنشره ولم تنجح. أخبرتها أن لديّ أصدقاء في دور النشر ويمكنني السعي لها لنشره، وسلمتني نسخة منه.

قبل أن نفترق ودعتني وأوصتني مرة أخرى بكتابها، وإذ ذاك سألتها مازحا:" أيصلح أن يكون موضوع رواية؟". ابتسمت وقالت "بالطبع"، ولكنها قبل أن تنصرف استدركت "ومع ذلك لن يصدقها الناس إن لم تنشر معها الكتاب".

الحقيقة أنني لم أسع مباشرة لأبحث لها عن ناشر، فكرت أن أقرأه أولا، كما أنني كنت مشغولا بكتابة رواية أخرى. كنت أشعر بضغط كبير ساعتها، فقد كنت بلا عمل منذ شهرين، أعتاش من بعض ما ادخرت. أما روايتي فكانت عملا منهكا لا يرغب في الانتهاء. في قرار نفسي كنت أعلم أنها رواية لن تنتهي إلى شيء، وكنت كلما أعدت قراءة بعضها أجدها أسخف من كل ما كتبت من قبل، ولكن لم يكن أمامي أي خيار غير إنهائها وعرضها على ناشري الذي مل من الانتظار. فمنذ خمسة أعوام لم أصدر أي رواية، فقد كنت أعتقد أن نجاح رواياتي السابقة سيمنحني المزيد من الوقت لأكتب واحدة جديدة، ولكن الوقت مضى ولم أستطع أن أفكر في أي جديد. بدأت أشعر بالموت، وبدأ ناشري ييأس مني، ولم تعد الصحافة تصدق كذبي، كلما سألوني أقول "قريبا سأنتهي من روايتي"، ولكنني لا أنتهي أبدا، لتمر الأعوام ويتأكد لي أن خاتمتي لن تكون طيبة.

ومضت أشهر أخرى لا أعمل في شيء. انتهت كل مدخراتي، وكالغبي أوقعت زوجتي في حمل جديد. وبدأت المشاكل تصطف

في طابور انتهى بقرار زوجتي بالطلاق، ويحُكم لها به وتأخذ أولادي وأضطر لدفع نفقة لا أملكها.. أستدين من الجيران.. من الأقارب.. من الأصدقاء، حتى لم يعد ثمة أحد لا أدين له.

في رمشة عين تغير كل شيء.. إلا إعساري.. إلا روايتي التي لا تريد أن تنتهي. وفي لحظة يأس مزقتها، فأحيانا يمنحك اليأس شجاعة ما كنت لتملكها لولاه. وقررت أن أتوقف عن الحلم.. حلم أن أصبح كاتبا.

ولأنني أدركت أنني لا أصلح للكتابة أو للصحافة، قررت أن أعمل مصحح لغة في الجرائد. كان هذا الأمر الوحيد الذي أجيده، فحبي ومعرفتي باللغة ما جعلاني سابقا أصدق وهمي، حتى تلاشت الحياة حولي وانهار كل ما بنيت. ولأول مرة في حياتي أنجح في شيء أخطط له، فسددت ديوني وتمكنت من دفع نفقة زوجتي السابقة وأولادي.

لم يكن الأمر سهلا أن أعيد توازني، وأن أطلّق حلما صاحبني منذ الصبا، والأصعب من ذلك أن أعمل في عالم صدَّق ذات يوم أنني كاتب، لأعود إليه مجرد مصحح لا تكاد تلاحظه حتى الأوراق التي يصححها.

لن أنكر أن الرغبة في معاودة الكرة كانت تراودني بين الحين والحين، ولكن اليأس الذي منحني الشجاعة في أن أبدأ حياة أخرى، كان يجعلني أجبن حتى من مجرد التفكير في كتابة أي شيء.. ثم ماذا كنت سأكتب وقد غادرني الحلم وطلّقني الأمل، حتى الحب لم يعد يعنيني منه إلا ما يَعنيه النور للكفيف.

ورغم هذا، لم يستطع اليأس أن يمنعني عن الكتب. فقد كنت أقضي معظم أوقات راحتي في القراءة، ولعل هذا ما أعادني إلى حياة

حسبت أنني انسحبت منها مرغما، حتى إذا لم يعد للأمل موضع قدم، حلّق الحلم من جديد.

ومع كل ما جرى نسيت نوى وكتابها، وكنت إذا هاتفتني تسأل عن أخبار النشر أزعم لها أن الأمر سيسوى قريبا، حتى أنني وفي عز ضائقتي أوهمتها أنني وجدت ناشرا ولكنه يشترط أن تمول العمل بمالها، ولنبلها أو لثقتها بي وربما لحاجتها في نشر الكتاب أعطتني ما رغبت فيه. بالطبع لم أنشر شيئا ولم أكن قد قرأت ورقة منه. لهذا ربما أحاول الآن كتابة هذه القصة.. تعويضا لها عمَّا فات.. جبرا لثقتها فيّ التي نَهشْتُها كما تنهش الضباع جيفة نتنة.

ولكن من أبدأ هذه القصة، فكما قلت لم يكن ما سبق بداية بقدر ما كان نهاية لقصة بدأت قبل الأين والمتى، حين لم يكن للإثم اسم، ولم تكن الخطيئة قد دونت في قاموس الحياة. حتى هذه لم تكن قد بدأت بعد، على الأقل مثلما نتصورها الآن، ما دام الموت كان قرارا لاحقا لها، ولكن لا بأس أن أبدأ من يوم ظن سيباستان دي لاكروا أنه وقع على أهم ما يحلم أي عالم أن يقع عليه، حتى أدرك في الأخير أنه لم يكن إلا حلقة في سلسلة بدأت أين لا يدري ولن تنتهي إلا حيث يقدر لها. بالطبع أحب أن أوهم نفسي أنها ستنتهي بي، وأنني سأغلق الحلقة، ما دمت أنا من يقرر إن كنت سأنشر الكتاب أم لا، ولكنني أعلم في قرار نفسي ألا خيار في أمر تقرر منذ الأزل.

قلت إنني سأبدأ من سيباستيان دي لاكروا، ولتكن البداية من عام 1808، حين كان واقفا على ظهر سفينة "لوروكان" مشدوها لمنظر لم ير مثله قط.. بالطبع لم يكن ليعلم ساعتها أنه ينظر إلى الأرض التي سيعود إليها بعد اثنتي وعشرين عاما ليموت فيها أيضا.

شهادة سيباستيان دي لاكروا أمام اللجنة الإفريقية[1]

لم أكن أفكر سيدي الجنرال بوني أنني سأقف أمام لجنتكم الموقرة لأدين أمة آمنتُ بها، وصدقت بحق أنها لسان حال حضارة، تسعى من خلال حروبها أن تزرعها في قلوب الهمج والبربر. وما قبولي للعمل مترجما تحت إمرة الضابط بوتان[2] عام 1808 وبعده الأميرال دوبيري والكونت دي بورمون إلا لإيماني بهذا. ولكني اليوم وقد أوفدكم جلالة الملك لتقصي حقيقة ما يجري في الجزائر، وبعدها اتخاذ ما يجب لإحلال العدالة وإنصاف من ظلموا في هذه الأرض. أقول لكم أن الحضارة التي حملناها من فرنسا إلى هنا، لم تكن إلا شعارا تافها، لطخناه بدماء أبرياء لم يحملوا حتى السلاح في وجوهنا، وإن حملوه ففرنسا أعلم من غيرها بشرف المحارب الذي يجب أن يصان حتى بعد هزيمته، فما بالكم سيدي الجنرال بما أصبح جنودنا يقترفوه من تنكيل ومذابح باسم الشريفة فرنسا التي تبرأ منهم.

(1) لجنة أوفدها الملك الفرنسي لويس فيليب إلى الجزائر عام 1833 لتقرير أهداف الحملة الفرنسية. أعضاؤها: الجنرال بوني رئيسا، النائب في البرلمان الفرنسي السيد بيسكاتوري، كاتبا، الجنرال مونفور، السيد دوفال دابي، السيد لورانس، السيد دوبير سار، السيد رينار، السيد دي لابينسونير.

(2) ضابط بحرية، كلفة وزير الحربية الفرنسية عام 1808 بجمع المعلومات الضرورية، لوضع خطة واضحة بهدف احتلال الجزائر.

وليسمح لي الجنرال الموقر وأعضاء اللجنة أن أسرد بالتفصيل ما شـاهدته دون أن أزيد فيه شـيئا، ولا غاية لي من كل ذلك إلا أن تقفوا عند حقيقة ما جرى، وبعدها فليدوّن السـيد بيسـكاتوري إفادتي بالطريقة التي يقتضيها عمله ككاتب لهذه اللجنة المحترمة، وكلّي ثقة في أنه لن يحذف شيئا منها، كما ثقتي فيكم أكبر سيدي الجنرال أن تصل إفادتي باريس كما دُوِنت.

لم أكن أعرف هذه الأرض قبل أن تصلني برقية صديقي الضابط بوتان لألتحق به في طولون حالا. لم يكتب شـيئا عن طبيعة المهمة ولا عن دوري فيها، وقد بدا لي الأمر غريبا ساعتها أن تسعى الحربية الفرنسية لتجنيدي، فلم أكن أكثر من مترجم لا علاقة له بأمور الحرب والسلم. لم أفكر كثيرا وانطلقت نحو طولون، فبوتان لم يكن مجرد صديـق، كان أكثـر مـن ذلـك، على الأقل في نظـري. ولم يكن أيضا ممـن يضخّمـون الأمـور ولا ممـن يسـتصغرونها، لذلك فقد خلصت أن الأمر مهم ما دام قد وصفه كذلك.

ما أن دخلت ميناء طولون وسـألت عن السـفينة لوروكان حتى عرفها الجميع، فقد كانت واحدة من أهم قطع الأسـطول الفرنسـي، فرغم صغرها النسـبي وتسـليحها المتواضع مقارنة بغيرها من سـفن الأسطول، كانت أسرع سفينة ملكتها فرنسا ذات يوم. ولعل مغامرتها في تلك السنة في البحر المتوسط على مشارف ماتيفو، حين حاول القراصنـة الجزائرييـن حجزهـا، أكـدت سـمعتها في أنها سـفينة شـبح. سـمعة اكتسـبتها منـذ واقعة ترافلغار الشـهيرة، لتكـون الناجي الوحيد من الأسطول المدمر على يد الإنجليز.

لـم يضـع بوتـان الكثيـر من الوقت وسـألني بمجـرد أن دخلت قُمْرته وانتهت أحاديث المجاملة:

ـ أذكر أنك أكثر الفرنسيين معرفة بالتركية والعربية.

ابتسمت تواضعا، ومع هذا هززت رأسي موافقا.

أضاف:

ـ ولك أيضا معرفة بلغة برابرة شمال إفريقيا.

ـ تقصد لغة البربر.

أجبت مصححا له. ولا أدري إن كان يعني وصفهم بالبرابرة أم أنه أخطأ وحسب.

وأضفت مستوضحا:

ـ أفهم بعض لهجاتها، أما تلك المنتشرة في الصحراء فأجهل عنها كل شيء، ولكن لي نظرية في طريقة فهمها، فما هي..

قاطعني:

ـ دعك من النظريات، وركز معي، فأنا أحتاجك في مهمة.. أقصد أحتاج معرفتك بلغات سكان مدينة الجزائر.

ـ ليس هذا بالأمر العظيم، فسكانها من العرب والترك والبربر أيضا.

ثم أضفت:

ـ تحتاج مترجما إذًا؟

ـ نعم.. مترجم نثق فيه.

ـ تثقون فيه؟!

ـ بالضبط، وقد فكرت أن تكون أنت؟

ـ ودوران اليهودي، ألم يعد يعمل مترجما لدى الحربية، أحسب أنه أكثر المترجمين معرفة بالجزائر وبكل شمال إفريقيا.

صمت قليلا، وقال بما يشبه الحسرة:

ـ في هذه المهمة بالذات، لا يمكن ائتمان دوران، فثمة تحقيق يجري حول نزاهته. ثم إنها مهمة لا يسعني فيها إلا أن أعمل مع من أعرفهم شخصيا.

لم يكن الأمر يحتاج إلا تفكير عميق لأدرك أن مهمة بوتان لا علاقة لها بالدبلوماسية والبعثات. ولكنني فضلت أن أصمت حتى يفصح بوتان عن طبيعة المهمة، ليخبرني أنها مهمة تجسس تمهد لغزو مدينة الجزائر. وقبل أن أنبس بكلمة وأعبر له عن رأيي، الذي يعرفه بالطبع، عن الحرب ورفضي لها، قال ببشاشة:

ـ أعرف رأيك مسبقا، ولكن اعتبر الأمر خدمة لصديق لم يطلب منك سابقا أي خدمة. ولتعلم أن غرضنا من غزو الجزائر ليس الاستئثار بها واحتلالها، ولكن تخليصها من الترك وتحريرها. لذلك أترجاك أن تنظر إلى الأمر بعين المدرك لمهمة الأمة الفرنسية نحو كامل الإنسانية، وبالأخص تلك المجتمعات البدائية، لتذوق أخيرا طعم الحضارة.

بهذا ظنّ بوتان أنه نجح في إقناعي بقبول المهمة، فقد كنت أعرف غاياتها وأسبابها الحقيقية. لم يكن يخفى على أحد ما تكبدته كبرياء نابليون حين أرغم على دفع ثمانين ألف فرنك فدية لبعض الأسرى. ولو أن الأمر توقف عند هذا الحد لتناسى كبرياءه المجروحة وأجَّل التفكير إلى حينه، ولكن الجزائريين تمادوا في تعنتهم بمجرد أن تناهى إليهم خبر غرق الأسطول الفرنسي في ترافلغار، وتوهَّموا أنهم بمنح بريطانيا امتيازات صيد المرجان وسحبها منه، سيقضون على فرنسا. لذلك كان لا بد من تأديبهم، ولا يتأتى ذلك إلا باستعبادهم.. فما لم يعط باللين يؤخذ بالقوة.

وفي فجر الرابع والعشرين من ماي رأيت أول مرة هذه الأرض،

ومـا إن تـراءى السـاحل للضابـط بوتـان حتى أعطى أمـره للطاقم أن يظلـوا يقظيـن وألا يغامـروا بالاقتراب أكثـر من اللازم، وأمر أن تبقى لوروكان في موقع يسمح لها بالمناورة والانسحاب إذا هاجمتها سفن الداي، مع الأخذ بعين الاعتبار مدى المدافع التركية.

ـ لا تنسوا.

"صرخ بوتان تملؤه الحماسة"

ـ .. لم نأتِ للحرب هذه المرة، ولكن مهمتنا هذه ستكون في عين الأمة أهم من كل حرب. أشـكروا الرب أن جعلكم السـبب في نعمة فرنسـا التي لن تعدم طريقة لتشـكركم هي الأخرى.. أما هؤلاء البربر المتخلفون فسيأتي دورهم بعد أن ننتهي من عملنا.

وهلل الرجال في حماسة موافقين ضابطهم، ثم تفرقوا كل واحد إلى عمله.

أثناء ذلك كنت سـارحا في السـاحل الذي تراءى لي قطعة من الجنة. بدا البحر أكثر زرقة والرمال حبات ثلج أو بساط قطن. تمنيت في سري أن تتجاهل الريح أمر الضابط بوتان، وتسيّر لوروكان صوب تلك الشواطئ.. فقط لو يحملها الموج إلى ذلك الساحل لأدقق في تلك الحصون وأملأ عينيّ بمشهد مدينة الجزائر التي قيل لي أنها من النظافة ما يغني أي سـائر عن الانتعال. وتمنيت في سـري أن يفشـل بوتـان فـي مهمتـه ليضطر أن يرسـل بعض العيون إلى السـاحل حتى يتمكنوا من معاينته عن قرب، فإذا اضطر إلى ذلك فلن يجد بدا إلا أن أرافقهم، ما دمت الوحيد في الطاقم الذي يحسن العربية والتركية.

إلا أنَّني سرعان ما أدركت أن رجائي قد خاب حين أمر بوتان بالعـودة إلـى باريس، بعد شـهر وسـبعة وعشـرين يومـا قضيناها على مشارف مدينة الجزائر بين كاب ماتيفو وسيدي فرج.

وفي حين ظننت أن رحلتي إلى الديار لن تستغرق، في أسوء الأحوال، أكثر من أربعة أيام، استغرقتني ثلاثة أشهر قضيتها سجينا في مالطا، بعدما حجز الإنجليز سفينتنا في عرض البحر واقتادونا جميعا إلى السجن، لأفر بعدها وثلاثة آخرون من بينهم بوتان وعدنا إلى باريس، أين عرض بوتان تقريره الذي سيحفظ في الأدراج حتى عام 1830، حين تقرر أخيرا غزو الجزائر.

وفي تلك السنة، وبالتحديد في التاسع من فبراير، استدعيت مرة أخرى للالتحاق بأسطول الأميرال دوبيري بطولون، لأكون المترجم الخاص للأميرال والكونت دي بورمون القائد العام للحملة بالجزائر، بعد أن تقرر الاستغناء أخيرا عن المترجم اليهودي دوران الذي اعتبر سبب فشل بعثة بيزار سنتين قبل ذلك.

أعترف أنني قبلت الالتحاق بالحملة، لا تصديقا لكلام بوتان في أنها ستكون حملة تحرير. بل لرغبتي في معرفة هذا المجتمع الذي لُقِّنت لغاته دون أن أفهم منطقها. وكانت تلك فرصة مواتية لدراسة تلك اللغات وغيرها المنتشرة في الجنوب، فقد كنت على علم أن الحملة لن تتوقف عند مدينة الجزائر أو بالاستيلاء على السواحل والحصون، بل ستمتد إلى كامل الجزائر. وكانت مهمتي أن أشرف على المترجمين المرافقين للحملة والذين كانوا في معظمهم أجانب، والسهر على تحرير ترجمات عربية وبربرية لرسالة الكونت دي بورمون إلى سكان مدينة الجزائر، تضمنت أهداف الحملة التي لخصها الكونت في تحرير الجزائر من الاحتلال التركي وضمان استمرار الامتيازات الفرنسية في الجزائر، ووعد بمغادرة الجيش الفرنسي الجزائر مباشرة بعد سقوط الحكم العثماني.

بالطبع لم تكن تلك الرسالة إلا حيلة فكر فيها الكونت لييسر

عليه دخول مدينة الجزائر دون أي مقاومة شعبية تذكر، فقد كان على علـم بالطبقيـة العرقيـة التـي قـام عليها حكم الأتـراك، وكان يعلم أن العرب وبعدهم البربر في آخر هذه الطبقية. لذلك فكر في الاستفادة من الأمر، وإيهام العرب والبربر أنهم ليسـوا أعداء، فإذا أمن جانبهم وتمكن من الأتراك، عاد إليهم ولم يكن قد وعدهم بشيء.

وإلى حين نزولنا في سيدي فرج، كانت الأمور تسير وفق ما خطط له ووفق ما اقترحه الضابط بوتان في المهمة التي شاركته فيها. ومع هذا استغرب الأميرال دوبيري وهو على مشارف سيدي فرج عـدم وجـود أي دفاعـات بالمكان، حتى المدافـع القليلة المتناثرة هنا وهناك لم تُطْلق منها أي قذيفة، بل وكان الساحل خاليا من أي جندي أو مقـاوم، وباسـتثناء بعـض المحليين الذين اعتقلناهم للاسـتجواب، بدت سيدي فرج خالية عن بكرة أبيها[1].

في قرار نفسي كنت سعيدا بعدم وجود مقاومة، ولعلني أوهمتها أن الاسـتيلاء على الجزائر سـينجز دون قطرة دم، ربما بعدها يمكن أن ندعي أننا جئنا الجزائر محررين لا غزاة، إلا أن سـعادتي سـرعان ما اضمحلت وأنا أرى الكونت يدخل وحرسـه مسـجد زاوية المرابو سـيدي فرج، ويأمر بإجلائه وكامل الزاوية حتى يسـتقر فيه، وبالفعل أقام قيادة أركانه في المسجد بعد أن نهبه الجند ودنسوه. كانت تلك، سيدي الجنرال، أولى جرائمنا في هذه الأرض، لم تكن جريمة ضد الإنسـان فيغفرها لنا، ولكنها جريمة ضد الرب الذي يحيطنا جميعا، نحن المؤمنون به وإن اختلفت دياناتنا، برحمته.

---

(1) علـى عكـس مـا ذكر سيباسـتيان دي لاكروا، فقد كتب أحمـد باي في مذكراته أنه كانت هنالك على مشـارف سـيدي فرج مقاومة متواضعة، حيث قبيل نزول الجيش الفرنسي، تم بناء بعض المتاريس التي سلحت بمدافع خفيفة.

ومع هذا أملت أن يكون ما قام به الكونت دافعه الخوف على حملته، وصدّقت وهم نفسي وأنا أعيد على نفسي خطاب بوتان حين استقبلني قبل اثنتي وعشرين عاما على ظهر لوروكان، وخدَّرت عقلي برسالة الكونت إلى السكان التي ترجمتها. وحاولت جهدي ألا يؤرقني ما شهدته من تدنيس في حق الرب، حين أمر الكونت بتجريد المسجد من كل موجوداته وتحميلها إلى سفينته. لتصبح زاوية المرابو سيدي فرج بعد ساعتين من دخولها نصف ردم، بعدما كانت وقت وصولنا إليها تحفة من العمران، ودليلا قاطعا على أن من بنوها ليسوا من البرابرة كما ندعي، والأكيد أنهم ليسوا مجرد قراصنة كما يزعم أميرالاتنا.

وما أن استقر الكونت في مسجد الزاوية، حتى أُعطيت الأوامر لباقي الجند باتخاد محيط الزاوية وبساتينها مراقد إلى حين يتحدد السير في اليوم الموالي، فانتشرنا في مزارع الشعير والحنطة وبساتين التين والبرتقال والزيتون،

واستقر كل واحد حيث شاء. وجاءت الأخبار أن الشعب ثار على الأتراك، ولم يعد أي جندي تركي في مأمن، وأن أنصار الآغا يحيى الذي أمر الداي حسين بقتله قبل ثلاث سنوات يسعون لقتله انتقاما لزعيمهم[1].

في تلك الليلة بعث إليَّ الكونت لأحضر مأدبة عشاء أقامها احتفالا بالنصر السهل، وقد حضرها جميع الضباط باستثناء الأميرال

(1) كان الآغا يحيى محبوبا من الجيش ومن العرب معا، وقد تولى قيادة الجيش 12عاما في عهد الداي حسين، وكان قد حضر معارك كثيرة محلية فاكتسب خبرة واسعة بأحوال البلاد ونفسية الأهالي. وكان نشيطا، طموحا وموهوبا، وهي الخصائص التي جعلته محل شك، فوجهت له تهمة التآمر فعزله الداي حسين ونفاه إلى البليدة. ولكن الآغا استمر في اتصالاته مع الأهالي، لا سيما العرب الذين رغبوا في تسليمه الحكم، فحكم الداي حسين بقتله سنة 1827.

الذي فضل أن يبقى متأهبا على سفينته، تحسبا لأي جديد. وكان من ضيوف الكونت بعض المور[1] لم أكن على معرفة بهم، ورجل من الأهالي لم يقدمني إليه الكونت رغم أنه عرفني بالبقية. وحين انتهت المأدبة أمرني الكونت أن أتبعه إلى مكتبه، وهو في الأصل مقصورة المسجد الذي جعل منها مقر قيادة وسكن.

كانت المقصورة مفروشة بالزرابي، نقشت جدرانها بآيات من القرآن، ومزينة بفوانيس فضية وذهبية وما يشبه زمردات ضخمة مختلفة الألوان، وكان بجانب الأريكة التي جعل منها الكونت سريرا، صندوق من النحاس مرصع بالفضة والمرجان.

قال الكونت وقد لاحظ اهتمامي بالفرش والصندوق:

ـ هذا ليس شيئا أمام ما ستجنيه فرنسا من هذه الأرض.

لم أعلق وتركته يكمل حديثه:

ـ بعد قليل سيدخل رجل اسمه أحمد بن شنعان، سيدَّعي أمام الجند أنه جاء رسولا ليعرف غرض الحملة، إن هي لطرد الأتراك أم هي لاحتلال لبلادهم. ولكني أحب أن تعرف أنه صديق قديم لفرنسا، وأنه هو من أرشى الجند الأتراك ليتركوا مواقعهم، حتى دخلنا سيدي فرج آمنين دون مقاومة.

قلت وقد أدهشني الخبر:

ـ سيدي.. وما المطلوب مني بالضبط؟

ـ أولا ألا تذكره أمام أحد بهذه الصفة، فهو بالنسبة إليهم مجرد رجل عادي..

(1) إيجاز لكلمة مورسكيون، وهم اللاجؤون من سكان الأندلس إلى الجزائر، ثم اعتمد للتعريف بالعرب الحضريين في الجزائر، وهم ثالث طبقة بعد الأتراك والكراغلة في فترة الحكم العثماني.

ـ وثانيا؟..

ـ وثانيا أن تترجم لي كل ما يقول، وسيقتصر جزء من عملك على ترجمة رسائله التي سيوفدها لنا لاحقا.

لم أعلق، فقد بدا أن كلامه لم ينتهِ. إلا أن دخول جندي يستأذنه بإدخال رسول سكان مدينة الجزائر، قطع

حديثنا، ليدخل أحمد بن شنعان، ويبدأ مع الكونت حديثا طويلا عن خطط الداي وعدد جنوده واستعداداته.

حتى أنه ذكر بالتفصيل الرسائل التي بعثها الداي إلى بيلكي الشرق والغرب وكأنه كان كاتبها. وكنت أثناء ذلك

أترجم بأمانة كل ما يدور بينهما.

بعد انتهائهما من تلك التفصيلات، سأل بن شنعان الكونت وكأنه كان يذكّره بوعد قطعه:

ـ تعلم أن هذا مجرد مهر لعرسي؟

ضحك الكونت وقد فهم قصده، وقال:

ـ وأنت تعلم أننا لم نكن مجبرين على وعدك، ولكن فرنسا لا تخذل أبدا خدمتها.

ابتسم أحمد وقال كأنه يؤكد كلام الكونت:

ـ هذا عهدنا بفرنسا، ولكني أردت فقط أن تعلم سعادتكم أن الأمر أهم عندي من أي وطن مهما كان، لذلك لم أتردد لحظة في خدمتكم مقابل ما وعدتموني به.

وتوقف لحظة وكأنه يتخيّر كلامه وأضاف:

ـ وأنا بالطبع متفهم إذا ترددتم في تنفيذ وعدكم، ولكن تذكروا فقط أنني سأكون رهن إشارتكم في أي شيء، إذا أسعدتم هذا الفقير

وشملتموه بعطفكم.

ضحك الكونت مجددا، ولكنه هذه المرة كان أقل صدقا. ثم صافح أحمد وودعه، وطلب الجند وأمرهم أن يحققوا معه ثم يطلقوا سراحه في الغد.

وقتها لم أفهم شيئا من حديث الكونت وبن شنعان بخصوص مقابل خيانته، ولم أعر بالا اهتمام الكونت به شخصيا، حتى أنه تنازل وسمح لنفسه أن يصافح خائنا. ورغم ذلك بدا لي أن الأمر يتعدى مجرد فرنكات تقدم له أو حتى إقطاعا مهما بلغ حجمه. كان ظاهرا لي أن المقابل الذي يطالب به بن شعنان أعظم مما يمكن تصوره.

وكعادتي.. لم يخب حدسي..

ولعل ما جعل حدسي يقينا ما سمعته صبيحة قدم وفد الداي حسين للتفاوض حول شروط الاستسلام، وقد ضم هذا الوفد كاتب الداي حسين الذي أمره أن يفاوض باسمه حتى يحصل على أفضل ما يستطيع، إلا أن الكاتب وعلى عكس مرافقيه من المور: أحمد بوضربة وحسن بن حمدان بن عثمان خوجة، كان يتحدث باسم الخزناجي، زاعما أن الداي حسين لم يعد يمثل إلا نفسه، وتمادى في وصف ضعف الداي حتى وعد الكونت، في لحظة حماسة أو نفاق، سيحضر له رأسه.

بالطبع لم يغب عن الكونت دي بورمون ما كان يحدث في بلاط الداي من مكائد يتزعمها الخزناجي، الذي عرفتُ لاحقا أنه الرجل الذي لم يعرفني به الكونت في مأدبة العشاء. لذلك ما أن ألقى كاتب الداي وعده بإحضار رأس سيده، حتى حوّل الكونت عنه وجهه وقال يخاطبه دون أن ينظر إليه: "إن فرنسا أشرف من أن تساعد المتآمرين وإن خدمت خياناتهم أهدافها، وإن يدي أقدس من أن أجعلها في يد

خائن متآمر كيد سيدك الخزناجي أو يدك النجسة".

ثم أعلن صراحة أنه لن يفاوض أحدا غير الداي وإن قدمت له الجزائر من شرقها إلى غربها على طبق الخونة.

كان هذا ما جعلني أحدس بخطورة ما طالب به بن شنعان مقابل خيانته، وأيضا بأهمية هذا الرجل الخائن الذي صافحه الكونت، رغم تقززه من كل خائن ومتآمر على بلده.

* * *

أعترف، سيدي الجنرال بوني، أنني فكرت في مغادرة الجزائر أكثر من مرة، خاصة بعد أن ظهر لي أن فكرة تصدير الحضارة إلى هذه الأرض لم يكن إلا حلما مخادعا، وبعد أن أيقنت أن وجودي في الحملة لم يعد ضروريا بعدما استغنى عن خدماتي من خلفوا الكونت دي بورمون، بدءا بالموقر كلوزال وانتهاء بالدوق دي رافيغو، الذي جعلتني عهدته أوقن ألا مثالية في هذه الحرب. ولعلني كنت قد أخذت، يوما، على الكونت دي بورمون تساهله مع الجنود والضباط لما قاموا به من أعمال نهب وسرقة غداة تسليم مدينة الجزائر، إلا أنني صرت أكثر احتراما له، عندما علمت رفضه المطلق لمساومات المدعو بن شنعان، حتى أنه رفض أكثر من مرة أوامر وزارة الحربية في تنفيذ وعدها لهذا المخبول. فلم يكن للأمر، كما حدست، علاقة بالمال أو بأي مقابل مادي، حتى محاولة الدوق دي رافيغو في تعيينه خلفا للآغا محي الدين وتنصيبه حاكما للبليدة، لم تكن إلا محاولة لاسترضائه حتى يتوقف عن المطالبة بمقابل خيانته. فلم يكن المقابل بسيطا حتى بالنسبة لرجل قوي كالدوق دي رافيغو الذي رضخ أخيرا لمطالبه، والتي بسببها سيحفظ التاريخ اسمه، لا كقائد عام، بل كسفاح

لا يفخر أي فرنسي شريف أن ينسب إليه.

سيدي الجنرال بوني.. سادتي أعضاء اللجنة الموقرين.

إن ما سأرويه من أحداث رهيبة، وقعت فعلا على منوال ما أحكيه. فلقد كنت شاهدا عليها وعلى ظروفها، وهي بالمناسبة على خلاف ما بلغتكم في باريس. فما الرواية الرسمية إلا جانب من الحقيقة التي أراد دي رافيغو وبن شنعان أن يخفياها، وهما لا يدريان أنهما بإخفائها في الأرض يزرعانها، لنحصدها ذات يوم سما وموتا.

ولئن لم تشفع لي سنين خدمتي في الجيش، فلتشفع لي عندكم صراحتي التي اضطرتني إلى هذه الشهادة[1]...

(1) علق السيد بيسكاتوري كاتب اللجنة : " أمر الجنرال بوني رئيس اللجنة أن لا تدون باقي الشهادة وتبتر عند هذا الحد، وبرر ذلك بسمو فرنسا عن أعمال موظفيها وإن اتسمت باللاإنسانية، وجاء في نفس الأمر ألا تحمل شهادة السيد سيباستان دي لاكروا على محمل الجد على اعتبار أنه يشك في ولائه للجيش ولفرنسا، لاعترافه الصريح أن قبوله التجنيد لم يكن لإيمانه وحبه للوطن وإنما بدافع رغباته العلمية وحسب.

وفيما عدا ما دون فإن باقي الشهادة تناولت واقعة العوفية التي وصفها دي لاكروا بالمجزرة وادعى مقتل عشرات الآلاف فيها، ونفيه أن يكون سببها تأديب هذه القبيلة لسرقتهم أمتعة المبعوثين الذين أرسلهم عميل الفرنسيين فرحات بن سعيد بمنطقة الزيبان إلى الكونت دي رافيقو ، وادعى أنها كانت مقابلا لخدمات المدعو بن شنعان، والذي قال أنه كان حاضرا فيها، وأنه عذب شيخها وقتله".

رسالتان

رسالة أحمد بن شنعان إلى شيخه[1]
مؤرخة في 12 أفريل 1832

تعلم أصلحك الله وبعثه فيك، أنني لم أبخل جهدا لنصرة طريقتنا منذ أن لثمني علمك الشريف وأعدتني إلى جادة الصواب، فكنت لك السهم والحراب، تصيب بهما من شئت من أعداء الطريق القويم. ولقد سخرت من مالي وقومي في سبيل كلمتنا ما سخرت ولا رياء. لكن الأمر قد تجاوزني والكافر دي رافيغو لا يكف عن مطالبتي بما وعدناه به إذا حمل على العوفية وسلمني شيخها الربيعة، ولئن لم نصب غايتنا فلا مفر من الوفاء وأنت أعلم بخسته وقسوته، ما دام هاذين ما دفعنا لاستعماله رغم كفره، إذ لا ضير من ضرب كافر بكافر. وكنت قد خوّفتك منه منذ قرر أن يجعل قيادة أركانه بجامع كتشاوة، وحين اعترض عليه الأهالي أمر بضربهم بالمدفعية حتى قتل أربعة آلاف[2]، إلا أنك راسلتني وقلت

(1) أغلب الظن أنه عباد بن بوعزيز المعروف بـ"النوي" المتوفى عام 1889 بزنينة عن 113 سنة، ومنه أخذت سلالته لقبه.خلف سبعة ذكور بينهم عبدلي والد "عباد النوي" الذي استقر في بن يعقوب عام 1932. **"السايح فراش"**.

(2) أراد الدوق دي رافيغو عند توليه أن يستقر في مسجد كتشاوة، لكن مفتي الجزائر رفض أن يعطي موافقته، فهدده الدوق بالسجن. وبعد أن اقترحت عليه فكرة الاستقرار في "الجامع الجديد"، صاح قائلا "لا أريد الجامع الجديد، أريد الاستقرار في المسجد الجميل، فنحن الأسياد، وقد انتصرنا". وفي يوم

لي أنه صاحبنا ولن يخذلنا كما فعل سابقاه(1)، وحين اتصلت به وأخبرته عن رغبتنا في العوفية وذكَّرته بوعد ملكه قبل أن نيسر له دخول الجزائر، اشترط 100000 دورو لنفسه و200 بوجو[2] لكل جندي يرسله في حملة العوفية، وقد سلمته نصف ما طلب قبل الحملة، وهو يطالب بالباقي الآن، فلما حدثته عمَّا غنموه من العوفية بفضلنا[3]، هددني بالقتل وسائر ملتنا إن لم نف بالدين. فإذا بلغتك رسالتي فابعث لي مع رسولي ما تبقى من دين هذا الكافر، ما دمنا في حاجته. فقد أخبرني العقيد بليسيي دي رونو[4] الذي قاد حملة العوفية أنه رأى أحد مترجمي الجيش يحدث الربيعة قبل أن نأسره بساعات، وحسب هذا الضابط فقد خضع هذا المترجم قبل شهرين إلى المساءلة بخصوص علاقته بشيخ العوفية، فأنكر معرفته به وبتهمة مساعدته في تهريب الأجناد الفرنسيين الفارين من الجيش الفرنسي إلى مارسيليا بواسطة قوارب صغيرة عبر ميناء صغير يقع عند مصب وادي الحراش. ولقد سألت عنه وعرفت أن اسمه سيباستيان دي لاكروا، وأنه قبل أسر الربيعة فرّ إلى حيث لا يعلم أحد. فحدثتني نفسي أن الربيعة أسرَّ إليه عن مكان أمانة

17 ديسمبر 1831 خرج سكان العاصمة في مظاهرات استنكارا لرغبة الدوق، واعتصموا في مسجد كتشاوة. وقد بلغ عددهم زهاء الأربعة آلاف. وكان رد فعل الدوق عنيفا، فأمر بإطلاق النار بالمدافع عشوائيا على المسجد.

(1) يقصد دي بيرمون وكلوزال

(2) عملات نقدية

(3) بعد بضعة أيام من مذبحة العوفية عرض الجنود الفرنسيين في سوق باب عزون للبيع أساور وأقراطا لنساء العوفية اللواتي قتلن خلال المذبحة، وكانوا ليحصلوا عليها قطعوا آذنهن وأيديهن.

(4) إليه تنسب المقولة: ""كل شيء حي كان مآله الموت... عند العودة من تلك الحملة المشؤومة، كان العديد من فرساننا يرفعون جماجم فوق أسنتهم"

صاحبنا المقدس لروحه قبل أن يقتل. وحتى إذا خاب حدسي، فليس من رجاء لنا إلا أن يستنجد من يحفظ السرّ بـ"الشريف بلطرش" ليحفظ الأمانة عنده بزنينة، فإذا فعل كنتَ هناك تتربص له، وسأسعى بدوري حتى يقوى عضدنا أن أقنع الفرنسيين بالحيلة والمال أن يُسيِّروا جيوشهم إلى هناك، حتى إذا جاء مستَأمَن الربيعة أخذناه على حين غرة.

أحمد بن شنعان

رسالة التلي بلكحل[1]
إلى سيباستيان دي لاكروا
مؤرخة في 17 ماي 1844

أبـدأ بالاعتـذار أولا على أسـلوبي الذي لن يكون منمقا نتيجة اطلاعـي البسـيط علـى اللغـة الفرنسـية، مـع علمي بمعرفتـك بلغتنا العربيـة وغيرهـا، ولكنـي أردت احترامـا أن أراسـلك بلغتـك الأم، حرسا على مودتك، وتعبيرا على احترامي لشخصك، بعد أن أبلغني سـي الشـريف بلطـرش[2] نقلا عـن الأمير[3]، ما تكبدتـه لحفظ أمانة لولا الله وسـعيكم لضاعت، كما أراد لها الخائن بن شـنعان الذي وقفـت علـى دناءته وخسـته، بعـد الذي اقترفه وصاحبـه دي رافيغو في حق العوفية حتى أبيدت عن بكرة أبيها. ولعلك عرفت أسـباب إبادتها بعد أن شـرح الله صدرك بالمعرفة، وسـبقت بن شـنعان إلى الأمانـة التـي صانهـا العوفية[4] وحفظوها لليـوم المقدر، وأحمد لك بالمناسـبة شـهادتك أمام اللجنة الإفريقية التي وإن كنت فيها صادقا مـع علمـك أن لا سـبيل لهـا للنـور، فقـد حصنت لسـانك من ذكر

(1) أحد أغوات سي الشريف بلطرش.

(2) من نواب الأمير عبد القادر الجزائري.

(3) يقصد الأمير عبد القادر الجزائري.

(4) إحـدى قبائـل مدينـة الجزائـر، كانـت أراضيهـا تقـع شـرق وادي الحـراش، بالمنطقـة المعروفة اليوم باسـم "المحمدية"، أبيدت عن بكرة أبيها بأمر الدوق دي رافيغو في 7 أبريل 1832. وذكرت بعض الكتابات الفرنسية أن رأس قائد العوفية، الربيعة، قد أحضر هدية للدوق.

أمانتنا التي أودعك الله والتي تعلم وقد تفحصتها أنها لا تخصنا نحن المسلمون فحسب، بل هي لبني آدم كافة. ولم يكن رجاء بن شعنان من تعذيب شيخ العوفيين وقتله بعد أن حرض دي رافيغو على إبادة القبيلة جمعاء، إلا ليستأثر بها هو وطائفته من الوافديين، وظنهم أن فيها مفتاح بعث صاحبهم الوافد، وهم على ضلال كما تعلم، فالوافد بن عباد رضي الله عنه، ما كان ليرضى أن يُقدَّس، أو يعبد أو حتى أن يجعل منه نبي، فما بالك بما افتروه عليه، حتى وضعوا صلاة غير صلاتنا، ودعاء لم يحفظه القلب، وقصائد يرتلونها وينشدونها في بعثه وألوهيته، ولعلك قد قرأت المبعثية، تلك البدعة التي يقولون أن خلقون بن مدا رضوان الله عليه من كتبها والله يشهد أنه افتراء وكذب. وكما قلت فقد راسلني سي الشريف بلطرش في أمر رغبتك في حمل ما بين يديك إلى زنينة[1] حفظا لها من الضياع، وخوفا عليها من أن يبلغ إليها بن شنعان أو أحد أتباعه، ورأيتُ كما أعلمت سي الشريف ألا تحملها إلينا، بعد أن تناهى إلي قرار الجنرال ماري بالزحف إلينا، وهو كما تعلم تمكن من إخضاع ناحية زكار وإجبار شيخ الأغواط على الاستسلام، وما هي إلا أسابيع ويبلغ زنينة. وقد راسلت الأمير عبد القادر ليبسط يده العادلة على الناحية، بعد أن أخذت له البيعة من القبائل، ولكن الأمر كما تعلم قد يتطلب شهورا قبل أن يصل مدده[2]، لذلك فقد فكرت في الأمر وقلَّبته على ما يقتضيه واستخرت الله عز وجل، ولم أجد

(1) زنينة الاسم القديم لبلدية الإدريسية بالجلفة.

(2) في عام 1845 بويع الأمير عبد القادر خليفة ليؤدب القبائل التي خضعت لفرنسا من أجل تأمين طريقها إلى أسواق الشمال، وبهذا ساد الأمير عبد القادر على منطقة الجلفة وأوقع بالفرنسيين في عدة مواقع حاسمة بفضل دعم السكان المحليين (عين الكحلة، زنينة، بوكحيل).

أفضل لك، صونا للأمانة، من تندوف وشيخها الصالح سيدي محمد مناد بن شريف، وهو رجل من أهل الكرامات والعلم يحفظها عنده إن شاء الله.. والختام سلام

التلي بلكحل

مذكرات سيباستيان دي لاكروا[1]

الكراسة الأولى

-1-

حتى أكون صادقا، لم أنج ليلة السابع من أفريل عام ثمانية عشر واثنان وثلاثون من أي موت، فلم يكن مقدرا أن أُقتل ليلتها. ليس لأن الربّ لم يقرر بعد نهاية أجلي، بل لأنني قبلت عرض الربيعة شيخ العوفية، في أن أنقل بعض الوثائق إلى مكان كان سيقرره لاحقا. كان العرض بسيطا: يساعدني في تهريب الجنود الفرنسيين إلى مرسيليا،

(1) هي التي كان قدور فرّاش يسميها "ملاحظات سيباستيان دي لاكروا"، كتبت بالفرنسية وترجمها السايح فراش وأعاد صياغتها في نص واحد، إلا أن قدور يؤكد أنه لم يجد النص الفرنسي الذي ترجم عنه أخوه. وبحسب ترقيم الصفحات، فالمذكرات من 73صفحة، غير أن مخطوطة الأخوان فرّاش لم تحوي إلا على هذه الصفحات المؤرخة للفترة الممتدة من 1832 حتى 1850، والتي اضطر السايح إلى تقسيمها إلى كراستين الأولى تعلّم الفترة حتى 1836 والثانية تسجل الفترة الممتدة بين عامي 1840 و1850، أما ما حدث مابين 1836و1840فغالبا يكون مسجلا في الأوراق الضائعة من المذكرات، ومع هذا يمكن تكوين فكرة عنها. وحتى أكون دقيقا فالمخطوطة في مجملها حوت 24 رسالة نشرتُ اثنتين منها، ومذكرات سيباستيان دي لاكروا، وتقرير هذا أمام اللجنة الإفريقية، نشر أيضا، والنص الكامل لـ"المبعثية"، وأخيرا كتاب "خلقون" المسمى "حديث الوافد بن عباد" بحواشيه.

مقابل أن أخرج وثائق له خارج مدينة الجزائر.

كنا قد التقينا أياما بعد مذبحة جامع كتشاوة الشهيرة. جاء يومها برفقة وفد من بعض القبائل ليقابلوا حمدان خوجة، حتى يكون رسولهم إلى الدوق دي رافيغو، وقد حسبوا أنه يستطيع إقناع الدوق ليأمر جنوده بكف اعتداءاتهم على الفلاحين في نواحي الحراش حتى مدينة البليدة، إلا أن خوجة استعفى من المهمة، ونصحهم بي، ولا أدري لحد الساعة لماذا جعلهم يتوهَّمون أن بمقدوري مساعدتهم، وهو الذي كان قريبا من دي رافيغو، ويعلم أكثر من غيره كيف تحولتُ في أقل من سنة من رئيس للمترجمين العسكريين في عهد دي بيرمون إلى مجرد مترجم عادي في عهد الدوق.

كنت وقتها معسكِرا في نواحي "جنان الباشا" [1]مع بعض الجنود منذ أزيد من شهر، نرقد في دار كانت ملكا لأحد يولداش[2] مدينة الجزائر، صادرها الجيش مباشرة بعد رحيل اليولداش مع الباشا حسين، وكنت أنا من اختار ذلك المنزل ليكون مرقدا لنا، فقد علمت من سكان المنطقة أن أحمد باي التجأ إليه بعد معركة سطاوالي، وبقي فيه حتى تناهى إليه خبر استسلام الباشا، ليعود لاحقا إلى قسنطينة. فلقد كنت معجبا بهذا الرجل الذي حولّ جنة الجنرالات إلى جحيم، بل جعل الحربية الفرنسية تعيد حساباتها من جديد، لتقتنع أخيرا أن الوصف الوحيد الذي لا يمكن أن توصف بها حملتها على الجزائر هو "النزهة"، والذي كثيرا ما تبجّح به الجنود الفرنسيون، وهم يدخلون

(1) باب الواد حاليا.

(2) أتراك جعلتهم السلطة التركية فوق كل قانون، إذ كان لا يمكن مساءلتهم مهما كان الجرم الذي يقترفون، وكان الداي وحده من يملك الحق في محاكمتهم أو عقابهم.

مدينة الجزائر دون عناء.

المهم أنه في مساء الخامس والعشرين ديسمبر من عام ثمانية عشر وواحد وثلاثين، جاءني رسول حمدان خوجة يسألني موافاته بـ"عين الرباط" [1]لأمر عاجل. وهناك عرّفني بالشيخ الربيعة الذي ما كدت أجلس حتى بدأ في تقديم عريضته، تحدث بعربية فصيحة، لقمها بين الحين والحين ببعض الكلمات الفرنسية، عن اعتداءات بعض الجنود الفرنسيين، على مواشيهم وحرمهم، وكذلك النهب الذي أصبح يطال البيوت الجبلية المنعزلة، وفي الختام سألني أن أنقل انشغالاتهم إلى الدوق بالطريقة التي أراها ملائمة، إلا أنني شرحت له بإطناب وبلباقة أيضا، استحالة الأمر، وكيف يمكن لرسالتي إليه أن تزيد الأمور تعقيدا، واعتذرت له بما رأيته يلائم مقامنا ذاك. وكنت كلما ذكرتُ حجة تدعم اعتذاري، أنظر في حمدان خوجة، فأجده يحرك رأسه موافقا، ولعل ضيوفه كانوا يفعلون مثلي ويرون بأعينهم، كيف أن خوجة اقتنع بحججي التي دفعت بها، فجعلهم، بحركة رأسه، يصدّقون كل ما تفوّهت به.

حينها استأذن الرجال حمدان خوجة بالانصراف، فسمح لهم إلا الربيعة الذي طلب منه المكوث أطول. وما أن انسحب الرجال حتى بادر خوجة بالحديث:

ـ هل أخبرتك أن سيباستيان يتحدث تسع لغات بطلاقة ويحسن كتابتها؟

سأل وكان يوجه كلامه للربيعة، فابتسم هذا دون أن يعلق، أما أنا فكنت أترقب المزيد.

ـ لقد كان من الغباء أن يستغني الدوق عن خدماتك.

(1) في الغالب "ساحة أول ماي" حاليا.

مقابل أن أخرج وثائق له خارج مدينة الجزائر.

كنا قد التقينا أياما بعد مذبحة جامع كتشاوة الشهيرة. جاء يومها برفقة وفد من بعض القبائل ليقابلوا حمدان خوجة، حتى يكون رسولهم إلى الدوق دي رافيغو، وقد حسبوا أنه يستطيع إقناع الدوق ليأمر جنوده بكف اعتداءاتهم على الفلاحين في نواحي الحراش حتى مدينة البليدة، إلا أن خوجة استعفى من المهمة، ونصحهم بي، ولا أدري لحد الساعة لماذا جعلهم يتوهَّمون أن بمقدوري مساعدتهم، وهو الذي كان قريبا من دي رافيغو، ويعلم أكثر من غيره كيف تحولتُ في أقل من سنة من رئيس للمترجمين العسكريين في عهد دي بيرمون إلى مجرد مترجم عادي في عهد الدوق.

كنت وقتها معسكِرا في نواحي "جنان الباشا" [1]مع بعض الجنود منذ أزيد من شهر، نرقد في دار كانت ملكا لأحد يولداش[2] مدينة الجزائر، صادرها الجيش مباشرة بعد رحيل اليولداش مع الباشا حسين، وكنت أنا من اختار ذلك المنزل ليكون مرقدا لنا، فقد علمت من سكان المنطقة أن أحمد باي التجأ إليه بعد معركة سطاوالي، وبقي فيه حتى تناهى إليه خبر استسلام الباشا، ليعود لاحقا إلى قسنطينة. فلقد كنت معجبا بهذا الرجل الذي حولّ جنة الجنرالات إلى جحيم، بل جعل الحربية الفرنسية تعيد حساباتها من جديد، لتقتنع أخيرا أن الوصف الوحيد الذي لا يمكن أن توصف بها حملتها على الجزائر هو "النزهة"، والذي كثيرا ما تبجّح به الجنود الفرنسيون، وهم يدخلون

(1) باب الواد حاليا.

(2) أتراك جعلتهم السلطة التركية فوق كل قانون، إذ كان لا يمكن مساءلتهم مهما كان الجرم الذي يقترفون، وكان الداي وحده من يملك الحق في محاكمتهم أو عقابهم.

مدينة الجزائر دون عناء.

المهم أنه في مساء الخامس والعشرين ديسمبر من عام ثمانية عشر وواحد وثلاثين، جاءني رسول حمدان خوجة يسألني موافاته بـ"عين الرباط" [1]لأمر عاجل. وهناك عرّفني بالشيخ الربيعة الذي ما كدت أجلس حتى بدأ في تقديم عريضته، تحدث بعربية فصيحة، لقمها بين الحين والحين ببعض الكلمات الفرنسية، عن اعتداءات بعض الجنود الفرنسيين، على مواشيهم وحرمهم، وكذلك النهب الذي أصبح يطال البيوت الجبلية المنعزلة، وفي الختام سألني أن أنقل انشغالاتهم إلى الدوق بالطريقة التي أراها ملائمة، إلا أنني شرحت له بإطناب وبلباقة أيضا، استحالة الأمر، وكيف يمكن لرسالتي إليه أن تزيد الأمور تعقيدا، واعتذرت له بما رأيته يلائم مقامنا ذاك. وكنت كلما ذكرتُ حجة تدعم اعتذاري، أنظر في حمدان خوجة، فأجده يحرك رأسه موافقا، ولعل ضيوفه كانوا يفعلون مثلي ويرون بأعينهم، كيف أن خوجة اقتنع بحججي التي دفعت بها، فجعلهم، بحركة رأسه، يصدّقون كل ما تفوّهت به.

حينها استأذن الرجال حمدان خوجة بالانصراف، فسمح لهم إلا الربيعة الذي طلب منه المكوث أطول. وما أن انسحب الرجال حتى بادر خوجة بالحديث:

ـ هل أخبرتك أن سيباستيان يتحدث تسع لغات بطلاقة ويحسن كتابتها؟

سأل وكان يوجه كلامه للربيعة، فابتسم هذا دون أن يعلق، أما أنا فكنت أترقب المزيد.

ـ لقد كان من الغباء أن يستغني الدوق عن خدماتك.

(1) في الغالب "ساحة أول ماي" حاليا.

قلت مبررا: "تلك من خيارات الدوق".

وإذ ذاك تدخل الربيعة، وكأنه وجد في الأمر فرصة ليخرج بعض غضبه:

ـ دوقكم، جاء ليقتل ويبيد، لا ليتحدث ويفاوض، فما حاجته لرجل يتقن تسع أو مائة لغة، إن اللغة الوحيدة التي يحب حديثها والاستماع إليها هي لغة البارود والقذائف..

وأضاف خوجة متمتما: " وأيضا صراخ الجرحى والثكالى".

إلا أن الربيعة سرعان ما تمالك نفسه، وقال بصوت ضرب عليه بعض الحزن:

ـ لتعذرني سيدي سيباستيان، فما زلت لم أنس ولا أظنني سأنسى ما حدث منذ أيام في كتشاوة..

ودون أن أشعر علقت:

ـ تلك أمور لا يمكن نسيانها..

وأضفت بحسرة: " الفظائع لا تنسى أبدا".

كان لكلمة "الفظائع" التي تلفظت بها بكل تلك الحسرة، وقعا خاصا بالنسبة للرجلين، لمحتُ الربيعة ينظر إليّ وكأنه يراني لأول مرة، ولعل ابتسامة إعجاب حاولت أن ترتسم على وجهه لحظتها، لو لم يمنعها خوجة أن تتشكل حين قال:

ـ لم يعد هذا الحديث مجديا الآن، فالذين قُتلوا يومها لن تعيدهم الاحتجاجات إلى الحياة، علينا أن نركز جهودنا الآن لئلا يتكرر الأمر مرة أخرى.

حركت رأسي موافقا، في حين علّق الربيعة:

ـ سيتكرر الأمر، أقسم أنه سيتكرر ما دام الدوق هنا، لقد قرأت

بأم عيني خطبه ومقالاته التي ترجمها بعناية الشريف حسونة دغيز، ووقفت على آرائه المتطرقة، إنه يطالب بإبادة الجزائريين عن بكرة أبيهم، يقول متبجحا إننا لا نزيد عن الثلاثة ملايين، يمكن إبادتنا واستبدالنا بعشرة ملايين أوروبي، ويدعم رأيه بما حدث ويحدث في القارة الجديدة.

قلت:

ـ لا تخلو أمة من المتطرفين، ولكن آراء الدوق قبل تولِّيه لا يمكن أن تبقى نفسها وقد تقلَّد الحكم، عليك ألا تنسى أنه في مهامه هنا يمثل الأمة الفرنسية من شعب وحكومة وبرلمان وملك أيضا، وهو في كل مهامه خاضع لأوامر الحربية الفرنسية.

وطال الحديث بعدها لساعات، لم أستطع فيه أن أقنع الربيعة أن الدوق مجرد موظف لدى الأمة الفرنسية، ولم يستطع هو أن يقنعني أن فرنسا الداخل بحقوقها للإنسان وعدالتها والأخوة التي تنادي بها بين المواطنين الفرنسيين، هي نفسها فرنسا الخارج بظلمها واستبدادها وجرائمها ضد الإنسانية. وعبثا حاول خوجة أن يحكم بيننا، فحتى هو كانت تتقاسمه مشاعره بين فرنسا "الكتب" أو فرنسا VITELL وفرنسا الدوق دي رافيغو.

وعلى أبواب المغيب افترقنا، على وعد أن نلتقي مرة أخرى. والحقيقة أنني لم ألتق بعدها أبدا بحمدان خوجة الذي ظل يحارب بمثالياته واقعه، في حين لم يمض أسبوعان حتى التقيت بالربيعة مرة أخرى.

هذه المرة كنت أنا من طلبه، فقبل أن يلقاني في مضارب قبيلته بوادي الحراش، وكانت تلك أول مرة أراه في عرينه.

استغرب حين رآني في ثياب حضر الجزائر، فحدس أنني لم

أكـن راغبـا أن يتعـرف إلـي أحـد، لذلـك ما أن بلغت مشـارف قبيلته حتـى حضـر بنفسـه دون رفقـة وانفـرد بي في أحـد دوره، وكان لديه خمسة منازل، أفرد كل واحد منها إلى زوجة من زوجاته الأربع، في حين كان الخامس مجلسا للحكم على طول أشهر السنة، إلا رمضان، حيث كان يعتكف به لجواره مسجد القبيلة.

بعد أن ضيَّفني بما يليق بمنزلته، سألني عن غرض الزيارة وسبب تنكري، ودون مقدمات سألته:

ـ ماذا بينك وبين المدعو أحمد بن شنعان؟

نظر إلى الأرض برهة، وكأن سـؤالي جعله يتذكر أمرا لم يكن راغبا في تذكره، وقال دون أن يرفع رأسه:

ـ لا شيء غير اختلاف الدين والمذهب والنية.

وقبل أن أسأله مجددا أضاف:

ـ لو عرفتَه جيّدا، لأدركتَ ألا علاقة يمكن أن تربط كلينا.

قال ذلك بنبرة المزدري.

ـ أسـألك لأنـه بلغنـي عن بعـض المترجمين، أنـه لا يكف عن اسـتعداء الـدوق عليـك وقبيلتـك، بـل إنـه يدَّعـي أن قبيلتـك كفيلـة بـأن تمنـع الاسـتيلاء على مدينة الجزائر، بسـبب تموينـك للمتمردين وإيوائك لهم.

قال وقد رفع رأسه محدقا فيّ:

ـ لقـد قلتهـا "يدّعـي".. لعـل الـدوق أذكى، وأعتقـد أنه كذلك، ليصدّق هذا المدعو بن شنعان، وإلا لكان صدق غيره حين اتهموك بتهريب الجنود الفرنسيين إلى مرسيليا.

قال ذلك مستذكيا.

لـن أنكـر أنـه فاجأني، بل وأدهشـني أن يكـون على اطلاع بأمر التهم الموجهة إلي، فلم يكن الاتهام حتى تلك الساعة رسميا بعد.

وقبل أن أفيق من دهشتي أضاف:

ـ احمد الله أن الدوق منشغل بأخبار أحمد باي، وإلا لكان له شأن آخر معك.

-2-

لـم يكـن الربيعـة مخطئـا في أن الدوق بدأ ينشـغل بأحمد باي، بعد أن رأى منه ما جعله يتحين الفرص للقضاء عليه. لقد كان مدركا أن بقاء الفرنسيين بالجزائر لم يضمن بعد، وأن أخذ المدن الساحلية الكبـرى مـا سيسـمح للحملة الفرنسـية بالاسـتمرار والتوغل للداخل الجزائـري ومنـه إلـى الصحـراء، ولـم يكن من الممكـن التوغل دون تأمين السواحل المصدر الأساسي للسلاح والرجال.

كانـت الفكـرة بسيطة: ربـح المزيـد من الوقت فـي انتظار غزو الشـرق انطلاقـا مـن عنابـة التـي اسـتعادها أحمـد باي لاحقـا، ولعل اسـترجاع مدينة عنابة ما جعل الحربية الفرنسـية تعيد حسـاباتها تجاه هـذا العـدو. ففي الوقت التي سـقطت فيه مدينـة الجزائر، كان أحمد بـاي ضيفـا فيها على الباشـا، وسـاهم في بنـاء المتاريس في أكثر من ناحيـة مـن المدينـة دفاعا عنها، وكان له دور كاد أن يشـكل فارقا في معركـة سـطاوالي التـي انهـزم فيهـا الأتراك، وكان الجميـع يعلم بمن فيهـم الكونـت دي بيرمـون بحنكـة هـذا الوالـي، حتـى أنهـم لطالما شـكروا السـماء عندمـا رفض الباشـا تنفيذ الخطة التـي اقترحها عليه قبيـل الغـزو، فقـد كان يـرى أنه من غير المجدي بناء أي دفاعات في ناحية سـيدي فرج، بل طالب الباشـا بمناوشـة الفرنسـيين عند نزولهم ثـم الانسـحاب إلـى مؤخرة جيوش فرنسـا من الجهـة الغربية للبحر، وبذلك يمددون في أجل الحرب، بحيث يتجه رجال الباشا إلى وادي

مازفران، فيجد الفرنسيون أنفسهم أمام خيارين: إما أن يسيروا نحو مدينة الجزائر وإما أن يقتفوا رجال الباشا، فإذا اختاروا دخول المدينة يكون رجال الباشا خلفهم فينقضون على مؤخرة الجيش ويأخذون مؤنهم ويقتلون المتأخرين منهم، وبذلك يقطعون الاتصال بينهم وبين مراكبهم. أما إذا ساروا نحوهم فيتجنبون التعارك معهم قدر المستطاع، حتى يلجون بهم ميدانا ملائما وبعيدا عن المدينة، وفي هذا كان أحمد باي يعتمد لإضعاف الجيش الفرنسي على الحرارة ونقص الماء وانقطاع التموين.

كانت حنكة أحمد باي ما صنعت الفارق في الأيام القليلة التي عاد فيها إلى بيلكه، فقد كان دي بيرمون متفقا مع خلفاء الباي على قسنطينة وهم بعض الأتراك اليولداش والباي سليمان على تسليم ناحية الشرق بنفس شروط تسليم مدينة الجزائر، نظير تولية سليمان بيلك الشرق، إلا أن أحمد بمجرد وصوله إلى ناحية سطيف اكتشف المكيدة، وصد هجوم بعض قبائل الناحية المتحالفين مع سليمان، وكان إذ ذاك رفقة 1600 رجلا جمعهم في ضواحي مدينة الجزائر واكتمل عددهم حين عسكر في "الفندق" إحدى قرى الخميس.

بعد انتصاره على القبائل المتحالفة، راسل أحد معينيه لينشر الخبر في مدينة قسنطينة، وهو حمبا كيمباش بن عيسى، ليثور السكان ويلقوا القبض على سليمان الذي قتلوه لاحقا أمام باب المدينة. أما أحمد باي فبمجرد أن دخل قسنطينة أعدم جميع حلفاء الباي سليمان، وأمر بقتل جميع يولداش مدينة قسنطينة. وحسب ما أخبرني به هو شخصيا، فقد قام سكان قسنطينة بقتل اليولداش بأنفسهم، انتقاما منهم لجرائمهم السابقة.

بيد أن متاعب أحمد باي لم تنته عند هذا الحد، فقد علم بعد

توليه أن الفرنسيين قد دخلوا عنابة، إلا أن عدم جاهزيتهم للزحف نحو قسنطينة طمأنته، وجعلته يهتم بأمر غريمه الجديد القديم إبراهيم باي، الذي كان بايا على قسنطينة قبل أربع سنوات حتى عزله الباشا وعين مكانه أحمد، وكان إبراهيم هذا قد استعاد بعض الأمل في استرجاع ولايته، بعد أن رفض أحمد باي الاعتراف بمصطفى بومزراق دايا جديدا، وقد كان مصطفى قبل استسلام الباشا حسين بايا للتيطري، قبل أن يتلقَّب بالباشا ويكسر عصا طاعة الكونت، بعد أن فشل من التقرب منه.

في جنونه هذا، أبلغ أحمد باي أنه عزله وعين مكانه الباي القديم لقسنطينة، مصطفى باي، الذي تحالف بدوره مع فرحات بن سعيد شيخ العرب السابق، ليحاربا أحمد باي. إلا أنهما انهزما في أول تصادم لهما مع أحمد، ففر إبراهيم إلى تونس والتجأ بن سعيد إلى قبائل وادي جدي.

بعد أيام دخل إبراهيم مدينة عنابة التي كانت تحت الحكم الفرنسي، فأوهم قائدها بولائه لفرنسا ورغبته في خدمتها، إلا أنه سرعان ما راح يحرض سكان مدينة عنابة ويغريهم بالثورة، حتى تمكن من إخراج الفرنسيين ليستولي بعدها على حكم عنابة.

أثناء ذلك أرسل أحمد باي رفيقه الأمين بن عيسى على رأس جيش، تمكن به من محاصر المدينة حتى استسلمت، وفر إبراهيم إلى قصبة المدينة، حيث التجأ بها، دون أن يتمكن من مغادرتها، بعد أن أطبق جيش أحمد باي الحصار عليه، حتى كاد يموت جوعا وعطشا لولا أنه تمكن في آخر المطاف أن يرشو بعض المحاصِرين ليفسحوا له طريق الفرار.

قد أزعم أن الحربية الفرنسية، ما كانت لتأبه بعنابة في الوقت

الحالي، لو لم يستعدها أحمد باي، فقد كانت تعلم أن إبراهيم أرحم وأهـون عليهـا مـن هذا الوالي الذي ستشـهد له وقائع لاحقة بعبقريته الحربية التي تعوز معظم جنرالات فرنسا.

-3-

ربما لم يكن الربيعة مخطئا بشأن اهتمام الدوق بأحمد باي، ولكنه بالمقابل أخطأ حين تصور أنه انشغل به عني.

كنت أعلم أنه شكل لجنة تحقيق يترأسها بيسيي، لتعرف من يقوم بتهريب الجنود الفرنسيين الفارين من الخدمة، ولم يكن لديّ أدنى شك في أنهم سيصلون إليّ عاجلا أم آجلا، إذ لم يكن أحد يجهل معارضتي لانحراف غاية الحملة من تحرير الجزائريين من حكم الأتراك وضمان الامتيازات الفرنسية، إلى احتلال كامل لهذه الأرض، ولعل الأصوات التي بدأت تجد صداها في الإليزيه في ضرورة قمع الأهالي بشتى الوسائل حتى الإبادة، جعلتني مقتنعا بضرورة العمل ضد ما أسميته موت الضمير. فشكلت فرقة من الجنود المؤمنين بمبادئي، وبدأنا ننفذ خطة من ثمانية بنود، كان بينها:

- السعي لدى الملك، لإبلاغه بالصورة الحقيقية للجزائر بعد الغزو، لاسيما بعد تولي الدوق دي رافيغو.

- محاولة إحياء ضمير الأمة الفرنسية، لدى الضباط والضباط السامين الفرنسيين، بحثِّهم في كل مناسبة باحترام حقوق الإنسان في كل أوامرهم، ولقد طبعنا ونسخنا آلاف النسخ من ميثاق حقوق الإنسان للسيد فيتال من أجل توزيعها عليهم وعلى الجنود الفرنسيين.

- كتابة تقارير صادقة عن الوضع في الجزائر ومحاولة نشرها في الجرائد الفرنسية، بهدف تنوير الرأي العام.

إلا أننا وبعد أشهر أدركنا ألا فائدة ترجى من "مثاليتنا" المفرطة، فالأمر كان واضحا بالنسبة للرأي العام والسلطة في باريس، بل أصبحت الجزائر، مباشرة بعد غزوها، مسألة متفقا عليها، ولا تقبل أي نقاش. لذلك فضلنا أن نعمل في السر، لنقلل الأضرار، على الأقل تلك التي لحقت بجنودنا، فقد لاحظنا أن ثمة شعورا متناميا لدى عدد هائل من الجنود، جعلهم يفقدون الإيمان بمهمتهم، بل أجهر بعضهم بما يختلجهم من مشاعر، إلا أنهم كانوا يتراجعون خوفا من العقاب الذي عادة ما يسلط على المشككين في نبل الجيش الفرنسي، والذي كان أحيانا يبلغ حد الإعدام.

لهذا تحولتْ مهمتنا من إيقاظ الضمير الإنساني في الأمة الفرنسية، إلى عمليات متواضعة لتهريب بعض الجنود.

كنا نكتري بعض قوارب الصيادين بناحية حصن الماء[1] لنؤمِّن نقل الفارين إلى عنابة ومنها عبر بواخر يؤمنها لنا أحد يهود عنابة إلى مرسيليا، إلا أن الرحلة من حصن الماء إلى عنابة، عادة ما كانت تأخذ أرواح الجنود، بسبب عدم جاهزية القوارب لمثل تلك الرحلة.

وحتى نتدبر طريقة أخرى اقترحت تعليق نشاطاتنا إلى حين.

أثناء ذلك بدأ بليسيي يلقي القبض على بعض الأصدقاء، حتى علمت أنه لم يبق من فرقتنا غيري ومترجم عسكري آخر يدعى بيشون، جاء إلى الجزائر مع أول نزول، فأدركت أن القبض علي لم يعد إلا مسألة وقت.

لاحقا علمت بعد أن اكتفى بليسيي باستجوابي، أن بيشون راسل صديقي القديم بوتان والذي أصبح وقتها جنرالا ومستشارا للملك، فبعث بوتان إلى الدوق يسأله أن يتوقف عن ملاحقتي، ورغم ما

(1) برج الكيفان حاليا.

عُرف به الدوق من جبروت وغرور، إلا أنه سرعان ما انصاع لرغبة بوتان، لعلمه أنه كان قادرا على أذيته.

وقتها لم أحط علما بمراسلة بيشون ولا بأمر الدوق أن تتوقف كل متابعة ضدي، فقد كنت أتصور أن نهايتي عاجلة لا محالة، لهذا قررت أن أبذل كل ما بوسعي هذه المرة، لأستثمر ما بقي لي من وقت في مهمة تهريب أكبر عدد من الجنود. وما كان طلبي لقاء الشيخ الربيعة إلا لهذا الغرض.

أذكر أننا التقينا في نهاية فبراير عام1832، أذكر اليوم جيدا، مادام حدث أسبوعا بعد أن عاود جنودنا احتلال عنابة، فقد بلغنا أنه في الوقت الذي كان يسعى فيه بن عيسى إلى اقتحام القصبة على إبراهيم الملتجئ بها، وصلت شواطئ عنابة باخرتان فرنسيتان معبأتان بالجند والسلاح، فاغتنم إبراهيم الفرصة وفرّ إلى الجبال، وساعد بعض مواليه الجنود الفرنسيين على النزول، في حين قرر بن عيسى الانسحاب، بعد أن تأكد له ألا فائدة ترجى من هجومه على الفرنسيين، وما أن عاد يحمل الخبر إلى أحمد باي، حتى أمره بحصار المدينة من جديد.

قلت التقيت بالربيعة في ذلك اليوم، وكانت الأخبار قد بلغته عن سقوط عنابة. بدا غير مهتم على الإطلاق رغم معرفتي بصداقته القديمة لأحمد باي. قال لي بعد أن أظهرت له دهشتي بلامبالاته:

ـ كنت أعلم أنها لن تصمد، أحمد أيضا كان يعلم، فقد راسلني وأخبرني ألا غاية له من البقاء في عنابة إلا أن يكسب المزيد من الوقت لتجميع الرجال وتأمين الحصون، وهو رغم ما يكابد منذ عودته إلى قسنطينة، لا يأمل على الإطلاق في وقف زحف الفرنسيين.

وللحظة صمت قبل أن يستمر في الحديث:

ـ إن أحمد أعقل من أن يتصور أنه بمفرده سيتغلب على فرنسا بكل جبروتها، لا لأنها لا تقهر، بل لأنها جاءتنا متوحدة شعبا وحكومة للنيل منا، أما نحن فنقاومها بفرقتنا وخلافاتنا. أنظر فقط كم من معركة خاضها صديقنا ضد إخوته من العرب والأتراك والكراغلة، ثم قارنها بمعاركه ضد عدوه الرئيس فرنسا، ستجد بلا ريب أن قوة أحمد أوهنتها خيانات أصحابه وإخوته، وأن شجاعته التي كان يجب ألا تظهر إلا مع القادم من البحر، تكاد تسحقها أقدام المتطلعين دوما إلى السلطان.. أحمد يدرك ألا مهمة له إلا ربح المزيد من الوقت، ليس ليتحصَّن أكثر فحسب، بل ليمنح الوقت لرجال آخرين، ربما ينسون مصالحهم، ويحاربون هذا العدو، لهذا لم أحزن ولم أدهش لسقوط عنابة، كما لن أُشده أيضا لو سقطت الجزائر بكل بيالكها في يوم واحد.

وكأنه رغب في تغيير مجرى الحديث، قال دون مقدمات:

ـ بالطبع لم تأت إليّ لتبلغني هذا الخبر..

وأضاف ساخرا:

ـ ولا أعتقد لتحزن معي على سقوط عنابة.

ـ بل جئت لأمر آخر تماما.

ابتسم الربيعة وبرقت عيناه وكأنه كان يعلم سبب زيارتي، ودون أن أمهله أضفت:

ـ أحتاج إلى مساعدتك..

قاطعني:

ـ في تهريب الجنود؟!

ـ ولك أن تطلب أي مبلغ تريد.

ضحك الربيعة وهو يربت على ظهري، ثم دعاني لنسير. قال وبقية ضحك في جملته:

ـ الطقس رائع اليوم، من يدري ربما تكون آخر مرة نرى فيها الضياء..

ودون أن أعلق بدأنا في تجوالنا بين أشجار الكرم والبرتقال، وكانت الأرض تحتنا لينة كأنها احتفظت ببعض ندا الفجر.

بقينا خطوات نسير ولا كلام، حتى بادرني:

ـ بشرط واحد.

ـ قل، فكما أخبرتك لا مشكل في المال.

ـ لا أريد شيئا من مالك، فما يوجد في بيوتي الخمسة كفيل أن يعيّشني مائة عام.

ـ إذن، ما هو أجرك؟

قلت متوجسا حشية من أن يطلب مني العمل عينا له على الدوق أو على الجيش، فحتى وإن كنت على غير وفاق مع غايات الحملة، ما كنت لأخون أمتي ولو أُزهِقت روحي.

ـ كلمة شرف لرجل فرنسي نبيل.. وعد تقطعه وتفي به.

قلتُ: أفعل أي شيء إلا خيانة وطني، لك أن تطلب أي شيء إلا هذا.

ابتسم دون أن يظهر عليه أنه تفاجأ من ردة فعلتي.

ـ تعدني أن تخرج حمولة لي من مدينة الجزائر، إلى مكان سأحدده لاحقا، لا تنظر فيها أبدا مهما حدث، وقبل أن تعارض أو تشكك في نواياي، أقسم لك أنها لا تحوي أي أمر من شأنه أن

يريبك في نفسك أو في وطنك. سأكتفي بوعدك الآن، على أن أُيَسِّر لك تهريب الفارين.

لم أجد الأمر يستحق المناقشة، ومن فوره بدأ في مساعدتي.

بعد خمس عمليات ناجحة، تبين لي أن الربيعة صادق معي، ولقد ساعدني في تهريب أكثر من أربعين رجلا انطلاقا من ميناء صغير بوادي الحراش، يحمل كل ستة في قارب صيد حتى يصلون عرض البحر بعيدا عن بواخر الأسطول الفرنسي ومناظيره، لتحملهم من هناك سفينة تجارية اكتراها لهذا الغرض إلى مرسيليا، حيث يدخلونها بهيئة بحارة.

-4-

في الرابع من أفريل، بعث إلي الربيعة أن أوافيه إلى مضارب قبيلته. كانت رسالته واضحة "لا تدخل القبيلة، وانتظرني على مشارفها حيث تريد، وسأعثر عليك".

ومثلما طلب مني انتظرته قرابة الساعتين حتى يئست من قدومه، وإذ فكرت في الذهاب إليه في منزله رأيته قادما نحوي، مرتجلا على غير عادته، حتى أنه بدا وكأنه تنكر لئلا يلحظه أحد، فقد كان يرتدي لباسا تركيا كالذي يرتديه الآغات ولكنه كان أقل بهرجة، علمت بعدها أنه من لباس مملوكي الأتراك، وكان قد خفف من لحيته وطلاها بالحناء، حتى بالكاد عرفته.

أمسكني من ذراعي وجرَّني وسط الأحواش حتى لا يرانا أحد.

قال لاهثا: لقد حان وقت تنفيذ وعدك.

قلت مصعوقا:

ـ كما تريد.

حينها أخرج من تحت ثيابه صرة مال عرفت لاحقا أن فيها ستة آلاف دورو وقلادتين من الذهب. قال: "هذه لك". وقبل أن أستفهم دفع إلي ثلاث رسائل وقال:

ـ هذه أرسلها إلى أحمد باي، سيخبرك إلى أين تأخذ الحمولة.

وكانت الرسالة مختومة بالشمع.

ـ أما هذه فسلمها لرجل تجده في وادي القليعة[1]، اسمه سليم بن أحمد، رجل علم يعرفه الجميع، سيسلمك بعدها الحمولة التي أخبرتك عنها، وحين يفعل ارتحل في ساعتك وتوجه ناحية الشرق ولا تتوقف حتى تبلغ مكانا اسمه وادي الكلاب[2] على مشارف قسنطينة، لي فيه بيتا اسأل عنه، قل لهم فقط بيت الربيعة، ومن هناك راسل أحمد.

ـ وهذه؟.

قلت مشيرا إلى الرسالة الثالثة.

ـ تحفظها عندك، حتى يأتيك رد أحمد، ولعله سيرتاب منك فيسألك سؤالا قد تجده غريبا بعض الشيء.

ـ أي سؤال؟

ـ سيسألك أن تسميَ الله.

ـ وبماذا أجيبه؟

ـ لا شيء أرسل له الرسالة التي عندك وحسب، أما إذا جاءك رد أحمد بغير هذا، وبين لك وجهتك، فلا تهتم لما في هذه الرسالة وأحرقها، ففيها ما لن يهمك أبدا.

ـ وبعدها؟

ـ تأخذ الحمولة إلى صاحبها، فإذا انتهيت، تصرف كأن لا شيء حدث على الإطلاق.

وقبل أن أنبس بكلمة، قبَّلي على جبيني ثم ودعني بصوت دافئ

(1) يأخذ منبعه من باب البحر ويشق بوفريزي ثم الأبيار ليصب في وادي مزفران.

(2) يطلق عليه حاليا اسم وادي الأحد، ويقع في أعالي قسنطينة .

مبحوح. حتى خلت للحظة أنه وداع رجل مقبل على الموت.

"لا ريب في أنه كان يعلم أنه مقبل على الموت، فالدوق دي رافيغو لا يكف منذ أيام عن مطالبته بالاعتذار على ما لحق بمبعوثي فرحات بن سعيد المتهمة قبيلته في سرقتهم، وعبثا حاول أن يقنعه ببراءته، حتى أن حمدان خوجة حين تدخل للوساطة وقدم البراهين والحجج على براءة الربيعة وقبيلته من التهمة، هدده الدوق بالنفي إذا عاد إلى هذا، والأرجح لن تمر أيام أخرى حتى يأمر الدوق بالقبض على الربيعة وعلى من اتهموا من رجال قبيلته."

بهذا فكرت وأنا في طريق العودة إلى معسكري، ورغم سوداوية أفكاري، لم يخطر لي أبدا ما سيحدث لاحقا.

فبعد ثلاثة أيام فقط. جاءني رسول من صديقي بيشون يخبرني بالفاجعة: لقد أمر الدوق بغزو قبيلة العوفية وإبادتها، فكما جاء في رسالة بيشون "لقد كان أمره واضحا لا لبس فيه، أقتلوا كل من انتسب إلى هذه القبيلة، حتى كلابهم اقتلوها"، "لا أريد أن يعود كل جندي بعد الحملة، إلا بأحد هذه الأمور: رأس معلقة على نصل، محفظة بارود فارغة أو قصص مرعبة تؤرق الكبار".

لم أكد أنتهي من قراءة الرسالة، حتى امتطيت فرسي أحثها على العدو، وما كدت أبلغ الحراش، حتى رأيت مقدمة جيش الدوق تسير نحو شرق الوادي في اتجاه القبيلة. وكانت الشمس قد غربت حين بلغتُ مضارب القبيلة أين التقيت بالربيعة الذي بدا لي أنه أقل توترا مما كان عليه في آخر مرة التقينا.

قال لي بوجه حازم:

ـ بلغتني هذه الأخبار بمجرد صدورها، فصديقنا حمدان سبقك إليّ.

قلت مستغربا:

ـ ومع هذا لا أراك مستعجلا ولا مرتبكا..

وأضفت بنبرة المستسلم:

ـ أتراك راغبا في الموت؟!

ـ لا أحد يرغب في الموت وإن عمّر قرنا. أما الاستعداد للموت، فنحن المسلمون أعرف به من سوانا، ومع هذا لا تخش، لن يجرؤ دي رافيغو على تنفيذ وعيده.

ـ ولمَ؟

ـ أنت أعلم أن قبيلتنا لا تعرف من أعمال الحرب والقتال إلا ما تسمع عنها، لم نرث من أجدادنا إلا المعاول والفؤوس والمناجل، فلم نكن نحتاج لنزرع أرضنا لأكثر من هذه، أما السيف والبارود فتركناهما منذ قرون. وهذا ما يعرفه دي رافيغو جيدا، لذلك لن يجرأ إلا أن يزيد في غراماتنا ويرفع من أتاويه، وهو يعرف أن إرهابه لنا سيحقق له مآربه.

ـ وماذا إن كان جادا في وعيده؟

ـ يكون هذا قضاء الله.

ـ وتقبل الموت لقومك!.

ـ أقبله، ما دام قضاء الله.

ـ إذن لا طريقة لتبدل رأيك.

ابتسم وشدني من ساعدي:

ـ أنت مسيحي، ودينك أكثر الديانات إيمانا أن الخلاص لا يأتي أحيانا إلا بقبول الألم. أليس أبناء دينك من يعتقدون أن آلام المسيح لم تكن إلا خلاصا للبشرية. نحن المسلمون نؤمن أيضا بذلك ولكن بطريقتنا..

وأضاف بحسرة:

ـ قد يكون في فناء قبيلتي حياة لغيرهم.

وإذ ترك ساعدي، همس لي: ائتمنتك على ما هو أغلى من زوجاتي وأولادي، فلا تضيعه ببقائك هنا.

قال ذلك وكأنه يتوسلني لأرحل.

وعلى عكس رجائه، لم أرحل، بقيت على مشارف القبيلة أرقب من بعيد ما يحدث.. اليوم أتمنى لو أنني عملت بطلبه ورحلت قبل أن أرى ما رأيت..

أعلم ألا أحد سيصدقني لو أخبرتكم أنني ليلتها صافحت الموت، رأيته أول مرة.. أقسم أنه أكثر بشاعة من البشاعة نفسها.. أقسم.

* * *

ومر عام، حدثت فيه أمور كثيرة، ولعل أهمها قدوم اللجنة الإفريقية من باريس. مثلت أمامها لأدلي بشهادتي، والتي علمت لاحقا أنها وصلت باريس مبتورة، بعدما أمر الجنرال بوني رئيسها أن تحذف أقوالي المتعلقة بمذبحة العوفية. ولم تكد تلك اللجنة تنهي أعمالها، حتى أوصتْ بتسريحي من الجيش.

وبالفعل سُرِّحت وأُمرت بالعودة إلى فرنسا.

في الليلة التي كان من المفروض أن أرحل فيها إلى طولون، تسلَّلت خارج المعسكر حتى بلغت مخبأ الرسائل التي أعطانيها الربيعة، فعشية عودتي من عند الربيعة يوم سلمني الرسائل، خشيت أن تقع في يد أحدهم وفضلت أن أحفر لها غير بعيد ودفنتها في مكان علّمته، وما كدت أضعها تحت ثيابي حتى انطلقت على صهوة فرسي إلى وادي القليعة، وقبل أن أبدأ البحث عن بيت المدعو سليم

بن أحمد، نزعت عني لباس العسكرية وارتديت جبة عربية وسروالا تركيا ووضعت على رأسي طربوشا آجوريا كالذي يضعه الأتراك، فقد فكرت أن أتنكر في زي تركي حتى لا أجلب الأنظار.

كنت قد وصلت فجرا، فتوجهت مباشـرة إلى الجامع وسـألت عن سليم. وكم كانت دهشتي حين أدركت وأنا أراه أنه لم يكن عربيا، والأرجح أنه من نسل بلقاني.

دون إبطاء سلمته الرسالة ففتحها للتو، وما كاد يرفع رأسه حتى تمتم: "رحمه الله". سألته "هل بلغك خبر مقتله؟"، أجاب دون تفكير "ما كان سيسلمك هذه ـ وأشار إلى الرسالة برأسه ـ إن لم يكن موقنا بقرب أجله". ثم أمرني أن أتبعه حتى بلغنا داره، وقبل أن ندخل صاح بأحد أولاده وأمره أن يضيِّفني، وانصرف مستأذنا: "تبيت الليلة عندنا، وفي الغد تجد أمانتك وترحل بها فجرا".. وأضاف: "أراك غدا".

مضـى النهـار دون أن أراه، وقضيـت الليلـة دون أن ألمحه، وما أن أذَّن الفجـر حتـى أيقظنـي وسـألني أن أخـرج معه، ودون أن أعلّق سرت خلفه.

أشار إلى حيث كانت بعض البغال، وكان عددها ثمانية، وقال: "على هذه أمانتك، فاذهب بها حيث أُمرت، وهذا ولدي يخدمك في رحلتك ولن يعود إلا إذا أمرته". ثم سلّم على ولده وانصرف بعد أن أوصاه أن يكون لي خير رفيق.

-5-

قضيتُ ويعقوب رفيقي اثني وعشرين يوما لنصل إلى وادي الكلاب، وما أن بلغناه حتى بحثت عن منزل الربيعة، ومثلما أخبرني فقد كان منزله شهيرا بحيث لم نجهد لنجده، ثم استرحنا يوما وليلة قبل أن أرسل يعقوب إلى أحمد باي برسالة الربيعة.

في طريقنا إلى هناك، كانت الأخبار تتوالى من قسنطينة عن معارك أحمد باي مع الفرنسيين من جهة، ومع إبراهيم باي الملتجئ في جبال عنابة من جهة أخرى، وكذلك عن وعود يكون قد تلقاها أحمد باي من السلطان التركي محمود، بمؤازرته بالجنود والعتاد.

أما الأخبار القادمة من مدينة الجزائر، فقد كانت تتكلم عن سقوط وشيك لقسنطينة، وتؤكد أن أحمد باي بدأ يفاوض الجنرالات لتسليم المدينة، وأخبار أخرى تتحدث عن استعدادات الجيش الفرنسي المرابط بعنابة للزحف على قسنطينة لعزل أحمد وتعيين رجل يدعى يوسف خلفا له.

لم يكن لي أن أتأكد من هذه الأخبار إلا بعد أن دعاني أحمد باي لموافاته بقسنطينة، ففضلت أن يبقى يعقوب مع حمولتي في دار الربيعة وتوجهت لتوي، حاملا معي الرسالة الثالثة إلى أحمد باي الذي استقبلني في معسكر خارج المدينة، فقد كان يعمل ليل نهار على تحصين المدينة، وكأنه كان مدركا أن الجيش الفرنسي قادم لا محالة.

استقبلني بابتسامة أضفت على وجهه الحازم النحيل بعض

العطف. شعرت وأنا أراه أول مرة بالرهبة لضخامة جسده وطوله الفارع الذي جعلني وأنا الطويل في عرف عائلتي، أشبه بالقزم مني إلى القصير، ولعل شاربه الكثيف، الملولب على الطرفين ولحيته الكثة والندب الناتجة عن ضربات السيف على وجهه، جعلته يبدو أكثر مهابة مما كان يجدر برجل في الأربعين.

ودون أن يدعوني إلى شرب أي شيء، قام ووضع أمامي فنجان شاي أسود، غُمست فيه أوراق نعناع.

ـ يبدو أنك كنت صديقا طيبا للشيخ الربيعة حتى يأتمنك على ما معك.

قال وكأنه كان ينتظر أن أرد عليه بشيء، وحين أدرك أنني استعفيت من الإجابة أضاف:

ـ لو كان الوضع أكثر أمنا، لحفظت حمولتك عندي، ولكن كما ترى ما هي إلا أيام ويكون الفرنسيون أمام أبواب المدينة.

ـ وما العمل إذن؟!

قلت بحيرة من لا يرى خلاصا من حمله.

ـ تقيم معي بعض الأيام حتى أرسل إلى بعض حلفائي من الحنانشة[1]، أسألهم إن كان يمكنهم استقبالك.

ـ حسبت أنك تعرف صاحب حمولتي، فقد أخبرني الربيعة أنك ستوجهني مباشرة بعد أن تعلم أن أمانته معي.

ـ بالطبع أعرف، ولكن الوضع لا يسمح لك الآن بالتوجه إلى هناك، وحتى تهدأ، فقد كان من المفروض أن أوجهك إلى نواحي الجلفة، حيث تودع حمولتك رجلا يدعى الشريف بلطرش، غير أن

---

(1) قبيلة كبيرة، كانت أراضيها تمتد من تبسة إلى الأوراس.

المنطقة غير مستقرة وفرحات بن سعيد يعثو فيها فسادا.

لم أحب أن أطيل جلستي وفضلت الانسحاب، فلم يكن أحمد باي متفرغا لي يومها، وضربت له موعدا بعد يومين، أزوره في قصره.

بمجرد عودتي إلى وادي الكلاب، قمت ورفيقي بدفن كل حمولة الربيعة في أرض الدار بعد أن حفرنا خندقا استلزم إنجازه أكثر من عشر ساعات دون توقف، ثم بعت البغال الثمانية وسلمت ثمنها يعقوب الذي أمرته بالعودة إلى والده، وأوصيته أن يبلغه أن الأمر فد تم.

وعدت بعدها إلى قصر الباي حيث استضافني، كان مقامي عنده بالنسبة إلي كالفردوس بعد كل ما لاقيته أيام رحلتي إلى هناك. ومع هذا لم يكن لي من رغبة وقتها، إلا أن يعود رسول أحمد برد حلفائه من الحنانشة، حتى أتحلل من وعدي للربيعة وأعود أخيرا إلى الوطن، فبعد مذبحة العوفية لم أعد قادرا على البقاء في هذه الأرض، ولم يعد إيماني بنبل الأمة الفرنسية راسخا كما كان قبل تلك المذبحة. أصبح واضحا أن قدومنا إلى هذه الأرض لم تكن غايته إلا استئصال أصحابها والحلول محلهم. ومع هذا كنت آمل ـ لوجود رجال لا زالت مبادئ الأخلاق تسري في عروقهم ـ أن تنظر فرنسا إلى عوراتها وتسترها قبل أن تنحل إلى الأبد.

طوال مكوثي بقسنطينة "وقد دام ثلاثة أعوام"[1] وأنا ألاحظ الحركة الدءوبة للجنود والبنائين، وكانت على خلاف مدينة الجزائر مجهزة بالأسلحة والعتاد الحربي، فعلى أسوار المدينة وحدها، انتصب ما يربو عن الثلاثين مدفعا صغيرا ومتوسطا وبعض المدافع

(1) إضافة للسايح فراش.

الكبيرة، وكان يسهر على الحراسة أزيد من ألف رجل يعملون تحت إمرة بن عيسى، كما كانت مخازن المدينة ممتلئة عن آخرها، حتى أن أحمد باي أخبرني ذات مرة، أنه يملك من المؤن ما يجعله قادرا على مواجهة حصار سنة كاملة، ومع هذا لم يكن أحمد باي من الرجال الذين يعلقون مصائرهم على المقادير، بحيث كان يحتاط لكل أمر، ومن فرط حيطته فقد جنَّد بعض سكان عنابة ومدينة الجزائر ليكونوا له عيونا هناك، ما جعله يستعد لأي طارئ.

* * *

لقد كنت برفقته حين حملت إليه أخبار باستعدادات كثيفة للجيش الفرنسي في عنابة، وأخبرته عيونه هناك، أن بواخر كثيرة أنزلت حمولتها من الرجال والعتاد في عنابة، إلا أنها لم تجزم إن كانت غاية تلك الاستعدادات الزحف إلى المدينة، أم السير إلى ربوع أخرى.

ما إن تناهت هذه الأخبار إلى مسامعه، حتى قرر أحمد الخروج إلى وادي الكلاب واستنفار القبائل وحلفائه لتشكيل الجيش، وتشابك مع الفرنسيين في "عقبة العشاري" على مشارف قسنطينة، ولكنه سرعان ما أمر رجاله بالانسحاب إلى داخل أسوار قسنطينة، في حين ظل هو يقتفي مؤخرة الجيش الفرنسي، بحيث كانت لا تفصله عنه إلا مسافة قصيرة تسمح له بالمناورة والمراقبة.

في هذه الأثناء كانت الأمطار والثلوج تتهاطل، ما أبطأ تقدم الجيش الفرنسي بحيث اضطر إلى التخلي عن الكثير من المدافع والذخيرة، فاغتنم أحمد باي الفرصة وشن هجوما على مؤخرة الجيش، قتل فيه الكثيرين واستولى على قسط عظيم من التجهيزات.

فـي حيـن اسـتمرت مقدمـة الجيش في التقدم حتـى بلغت المنصورة وهضبة سيدي مبروك، أين نُصبت المدافع، وفي دقائق انقسم الجيش إلـى فريقيـن، بقـي الفريق الأول حيث كانـت المدافع منصوبة، ونزل الثانـي مـع منحـدرات المنصـورة وقطع وادي الرمـل، حتى بلغ كدية عاتي، لتكون له نقطة هجوم ثانية.

كنت وقتها على أسـوار المدينة أراقب ما يحدث، وبن عيسـى خليفـة أحمـد بـاي لا يكف عن الهتاف والتكبير وشـحذ الهمم، وفي الوقت ذاته كان يراقب ما يحدث خلف الأسوار، دون أن يكف على إعطـاء الأوامـر، وكان أمـره الأكثـر حزما ألا يطلقـوا قذيفة حتى يأمر بذلك. إلا أن النهار مضى كله دون أن يعطي الأمر.

كان الجنـود الفرنسـيون بدورهـم يحاولـون تحصيـن مراكزهـم التي احتلوها، ودون أن يقرر أحد الطرفين، أصبحت المعركة معركة أعصاب، ينتظر كل طرف أن يخطئ خصمه.

ربما لـم يفاجئني التكتيك الحربي لدى جيشـنا، فقد كان مدربا على ذلك، ولـم يكن جنرالاتنا يستحقون أي تنويه، ما داموا لا يفعلون أكثـر مـن تطبيـق مـا تعلموه فـي الكليات الحربية، أما الذي أدهشـني بالفعل تلك العبقرية التي أبداها أحمد باي، حين توجه إلى "مسلح"[1] ونصب مدافعه الصغيرة وبعض المدفعية التي غنمها في هجومه على مؤخـرة الجيـش، ليصبـح الفرنسـيون بينـه وبين أسـوار المدينة. ولما خشـي أن تكـون دفاعـات المدينـة غير كافية، أرسـل إليهـا جزءا من الجنود، الذين دخلوا المدينة ليلا من جهة صعبة لـم تكن محروسـة. وفـي نفـس الوقـت اغتنم رداءة الطقس والتعـب الذي أصاب الجنود

(1) يقع بمجاذاة واد زناني بقسنطينة

الفرنسيين وأخذ يناوشهم ليلا، ليمنعهم من النوم والراحة.

في صبيحة اليوم الثاني حاول الفرنسيون اقتحام المدينة من جهتين: عبر القنطرة الضيقة وعبر الباب الجديد، ولما كان الهجوم عبر القنطرة عملا انتحاريا بسبب ضيقها، فلم يأبه أحمد باي بهجومهم هذا، وترك حراس الأسوار يتولون الأمر، وبالفعل قُتل كل من حاول اجتياز القنطرة، حتى انتهى الهجوم إلى فشل ذريع.

وهكذا تركز الهجوم أخيرا على الباب الجديد، واستمرت المعارك لسبعة أيام كاملة دون أن يستطيع أحد اختراق المدينة، وكان الطقس إذ ذاك يزداد رداءة، وهكذا قرر الفرنسيون أن يضعوا كل مالهم في كيس واحد، وتقرر نصب مدفع قريب من باب المدينة بهدف إتلاف قضيب حديدي كان يمسكه، إلا أنهم فشلوا في هذه أيضا، وانسحبوا رغم ما ألحقوه من ضرر بأحد أسوار المدينة.

الغريب أن أحمد باي أثناء كل تلك المعارك لم يحرك ساكنا، كان يراقب فحسب من موقعه الذي كان أخطر على الجيش الفرنسي من أسوار المدينة التي لم يستطيعوا دك سور واحد منها، وحين يئس الفرنسيون من دخول المدينة قرروا الانسحاب والعودة إلى عنابة.

كانت هذه المعركة صفعة لكبرياء الجنرال كلوزال، الذي فهم أخيرا أن حربه في الجزائر ليست مجرد عمليات إبادة يتفنن في تنفيذها. لقد كانت أيضا حرب عقول جبارة، امتلك أحمد باي أكثرها عبقرية.

الكراسة الثانية[1]

-1-

خريف 1840..

كلما مرت بقربي وأنا مشغول بنقل رسوم الألواح إلى أوراقي تبتسم. أبتسم لها بدوري وأنا أحسدها على ما هي فيه، فلشد ما رغبت أن نتبادل دورينا فأكتفي بما اكتفت به، غير آبهة لا بما يدور خارج منزلنا ولا بما أصبح يشغلني ليل نهار.

ومع هذا، كانت أحيانا تحاول أن تجعلني أعتقد أنها تهتم. تسألني ببراءة عن كتاباتي، فأحاول كالمعتوه أن أشرح لها، أقول لها أنها كتابات قديمة، بعضها من بلاد الحجاز وأخرى من حضارات بادت، تحكي قصة غارقة في القدم، قصة الإنسان الذي انقرض في عقولنا، تحكي عن الحق المتعدد والواحد في آن، عن حقيقة لم يعد يشغلنا منها إلا خيالاتها، نقتفيها ونحاول القبض عليها بأيد جِلْدها الوهم.

وحين أرى تلك الضبابة التي عادة ما تلف عينيها، أتراجع عن سفسطتي وأحكي لها ما في ألواح خلقون وكأنه قصة أسطورية تبدأ وتنتهي، وأنا أعلم أن لا بداية أو نهاية لها. كنت أفعل ذلك رأفة بها، أو رأفة على نفسي، لعلمي أنه لم يعد أمامي الكثير من الوقت أضيعه حتى معها، وهي الزوجة التي لطالما حلمت بمثلها، إذ كان من البديهي أن تعود أمانة الربيعة إلى أصحابها ذات يوم.

---

(1) تصرف السايح فرّاش في ترجمة بعض فقرات هذه الكراسة، على نحو يجعلها مفهومة.

أعترف أنني لم أعد متعجلا في التخلص من وصية الربيعة مثلما كنت قبل ثلاث سنوات، فمنذ اكتشفت الحمولة التي كانت في ذمتي منذ وفاة الربيعة، وأنا ألوم نفسي على الوقت الذي ضيّعته دون الاهتمام بها، لقد كان بحوزتي دون أن أدرك أكثر أسرار البشرية غرابة ودهشة على الإطلاق، ولكنه الوعد الذي أعطيته الربيعة ألا أطلع على حمولته ما جعلني أعمى عنه، لولا الرسالة الثالثة التي بقيت بحوزتي وقد نسيت أن أحرقها.

ولأكون دقيقا، فقد بدأ كل شيء منذ ثلاثة أعوام، حين دخلت المنعة [1] أول مرة، وكان أحمد باي قد أرسلني برفقة أولاده وزوجاته لأجعلهم في حمى أحد حلفائه المدعو بن عباس، الذي منحني منزلا وزوَّجني من إحدى بناته لاحقا، ولم تكن لي من رغبة حينها إلا أن أتصل بالشريف بلطرش لأسلمه حمولة الربيعة، وكان أحمد باي قد طمأنني أنه سيعود ويرافقني بنفسه إليه بعد أشهر، ولكنه بعد سقوط قسنطينة كف عن زيارة المنعة خوفا أن يكتشف أعداؤه من الفرنسيين والعرب مكان أهله فيهددونه بهم، لذلك لم أجد إلا أن أصبر ما دمت على يقين أنه سيعود ذات يوم ما دامت زوجاته وأولاده في المنعة.

قبل خروجي من قسنطينة، نصحني أحمد باي أن أطلق لحيتي وأغير من لبسي، وأتسمّى باسم تركي أو عربي لأبعد عن نفسي المخاطر، فاخترت الربيعة تيمنا بشيخ العوفية المتوفي، ولكنه شرح لي عادة الجزائريين في أن تكون أسماؤهم ثلاثية أو خماسية، فقلت له أنني أختار أن يكون اسمي الربيعة بن فراس، تحببا بأبي فراس الحمداني الذي كنت أعشق شعره. أذكر أنه ضحك حتى كاد يغمى

(1) قرية في قلب الأوراس.

عليه، وما كاد يقطع ضحكه حتى قال: بل الربيعة بن فراش بن حمدان. وشرح لي أن "فراس" اسم غريب في الجزائر، أما فراش فهو من الأسماء المعروفة في البلد، ثم نصحني أن أنتسبت، وأقول أنني كرغلي من مدينة الجزائر.

المهم أنني وبعد أن تزوجت فاطمة بنت مضيفي، رأيت أن أعتاش من الكتابة والترجمة، فلم يكن من اللائق أن يبقى بن عباس يعولني، رغم أنني كنت أعلم أنه كان يفعل ذلك تنفيذا لأمر الباي.

وبقيت أشهرا أعمل في الكتابة والترجمة، حتى جمعت من المال ما مكنني من بناء منزل، رحلت إليه وزوجتي التي أنجبت أول أولادي "رابح"، وصنعت لي فيه مكتبة، حفظت في جوفها حمولة الربيعة، وجعلت بها رفوفا للكتب التي اقتنيتها لاحقا، ولئن كانت في معظمها كتبا في الفقه واللغة، فقد كنت مهتما بما قد يكون فيها من حديث في الفلسفة والأساطير. ولما علم سكان المنعة بشغفي، أخذوا يهدونني من الكتب التي ورثوها أبا عن جد، والتي لا أعتقد أنهم اطلعوا عليها.

هكذا وجدتني أملك مكتبة لم أحلم بها قط، وكنت أسأل نفسي غرورا أو دهشة، كيف يملك هؤلاء البدو كل تلك الكتب. أقول "غرورا" لأنني في قرارة نفسي لم أكن قد تخلصت بعد من ذلك الباريسي الساذج، الذي صدق أنه يملك شيئا يمكن أن يقدمه لهؤلاء، وحريّ بي أن أقول بعد عشرة أعوام قضيتها في إلدورادو الفرنسيين، وأربعة أعوام هنا، أنه لا أنا ولا أي أوروبي خدَّرته "خطب الحضارة" كان قادرا أن يمنح هؤلاء، بل هم من منحونا كل شيء.

قلت، أنه لولا الرسالة الثالثة التي لم أحرقها، لما اكتشفت ما عُميت عنه، ذلك أنه في أحد المساءات، أياما فقط من انتقالنا إلى المنزل الجديد، عثرت عليها فاطمة وهي ترتب أمتعتي فأحضرتها

إلـي. كنـت وقتهـا منشـغلا بقراءة كتاب مـا، فلم أعرها بـالا وأمرتها أن تضعهـا بجانبـي، حتـى إذا انتهيتُ وأردت أن أنصرف للنوم رأيتها وكأنني أراها أول مرة: ظرف بحجم اليد، شُـمِّعت جوانبه، وهو في الأصل ورقة طويت من كل جانب حتى شـكلت ظرفا. فتحته بعناية خشـية أن أتلفـه، فبـدا لي أنه ورقـة خالية من كل كتابة، وحين قرَّبت الشمعة أكثر، وتركَّز ضوءها على الورقة، ظهر سطر واحد، في الغالب أنه كتب بالقطران بخط كوفي دقيق. قرأت باستبطاء " هو الله الذي لا إله إلا هو، بأسمائه التي نعرف وأسمائه التي تحتها، وباسمه الأول الكاشف الواصف له من غير وصف، هو.....".

هكـذا عرفت الاسـم السـري لله، وفهمت بعـد أن قرأت ألواح خلقون أنه لو تكشف للعامة لفقدت الرجاحة معناها.

بعدهـا هتكـت عهـدي للربيعـة وكشـفت مـا بالحمولـة، كانـت كلهـا خمسـة وسـتون لوحـا من الحجر بحجم الوجـه، كتب معظمها بالعربية، إلا واحدا كتب بالثمودية، حاولت ترجمته بقدر ما أسعفتني عليـه معرفتـي المتواضعـة بهذه الكتابة القديمة، إلا أنني بعد أن كدت أنتهي من ترجمته، مزقت أوراقي لاكتشافي خطورته. ربما فكرت أن أكسـره خوفـا أن يطلـع النـاس عليه، ولكنني بعد تفكيـر تركته جانبا، فمـن أنـا لأقـرر فـي أمر تقرر سـابقا. وعـدت إلى بقية الألـواح أعيد نقلهـا وأترجمهـا إلى الفرنسـية، وكانت هـذه تحكي عن حلقات علم جمعت أربعة رجال، ذكروا بأوصافهم وأنسـابهم وأسـمائهم، إلا أن مكان لقاءاتهم لم يكن معينا فيها. ومن بين ما وجدت ثلاث لفائف كتبها أحدهم وهو "خلقون بن مدا".

الآن تفهمـون لـمَ لـم أعد متعجلا على تنفيذ وصية الربيعة، ولو كان الأمر بيدي لأجلت لقاء بلطرش إلى الأبد، لكنه لم يكن أبدا في

يـدي ليكـون الآن. ولعـل خوفي من أن أفقد ألواح خلقون ما جعلني لا أهتم بما يحدث لأحمد باي، طيلة السنوات الثلاث السابقة، إلا أن الأخبار كانت تتوالى إلى المنعة، فقد كان أحمد حريصا أن يطلع بن عباس بكل ما يجري معه. لقد تأكد لي أنه لم يعد قادرا على استرجاع قسنطينة، ولا على محاربة الفرنسيين كما كان يفعل، فحروب القبائل التي أنهكته وخيانات ذويه، جعلته أكثر رغبة في البقاء على قيد الحياة منه إلى استرجاع سلطته.

وما لبث أحمد أن توقف عن الكتابة لأهله وبن عباس، وشـاع عنـه أنـه مريـض يسـتقبل المـوت، وقال بعـض العائدين مـن نواحي بسكرة أنهم رأوه يشيع إلى القبر محمولا في صندوق، وأخبار أخرى تفيد بإصابته بشـلل جهته اليسـرى، وبين هذه وتلك صرت حائرا في أمـر حمولـة الربيعة، هل أتوجه إلـى الأغواط والجلفة لألقى المدعو بلطرش، أم أمكث حتى يأتيني الفرج.

الحق أقول، أنني كنت أميل للمكوث في المنعة وإبقاء الألواح بحوزتي، ولكم سـاورتني نفسـي أن آخذ زوجتي وولدي وأرحل إلى عنابة ومنها إلى الوطن، ولقد كنت على وشـك أن أفعل ذلك لو لا ذلك اليوم من عام أربعة وأربعين.

ففي فجر التاسع عشر من أوت، جاء بن عباس يطلبني، قال لي بصـوت مضطـرب : "مـات الباي وهـم يحملونه إلى هنا". لم أصدق الأمر وخرجت برفقته مفجوعا، ولولا بقية من صبر لبكيت كما كانت تفعل نسـاء المنعة اللواتي مزقن ما تبقى من أسـمال الليل بصراخهن وعويلهـن، لـم تقطعـه إلا الزعاريـد الصادرة مـن كل صوب وصوت البارود من بنادق الرجال.

وعلـى بعـد أكثـر من خمـس كليموتـرات التقينا برجـال الباي،

ومثلما جاءت به الأخبار، فقد كانوا يحملون نعشا أخضر على أكتافهم في صمت مريب.

صرخ بن عباس في رجاله ورجال الباي الحاملين النعش:

ـ كبِّروا، فعلى أكتافكم تحملون من لم تستطع فرنسا بقوتها وجبروتها أن تحمله على أكتافها.

وما كاد رجال بن عباس يرفعون صوتهم، حتى قطع مشهد، لم يكن بالحسبان، تكبيراتهم، لتظل عيونهم جاحظة وكأنهم عميان يرون النور لأول مرة.

-2-

تملكنـي الضحـك وأنـا أنظر إليه، جالسـا يلاعب بعض أولاده. قال مبتسما:

ـ أهناك ما يضحكك؟

قلت وأنا أرفع يدي معتذرا:

ـ لاشـيء، غيـر أننـي تذكـرت دخولـك الغريب علينـا منذ عام، وكيـف ذهـل الرجـال وهـم يرونـك تخـرج مـن النعش الـذي جئت محمولا عليه.

ضحك للحظة وعلق:

ـ لعـن اللـه المـرض، سـقمت حتـى لم أعد قـادرا على ركوب فرسي ولا حتى على الجلوس، فلم يجد الرجال من طريقة ينقلونني بها غير وضعي في نعش.

وأضاف:

ـ أتعرف، إنها لتجربة مذهلة أن توضع في نعش. الآن صرت أفهم رغبة بعض المتصوفة أن يحفروا قبورهم بأنفسهم ويتمددون فيها.

قال ذلك وهو لا يكف عن النظر في الأرض. شعرت أنه كان راغبا في أن يقول شيئا آخر، ولكنه على خلاف حدسي توقف عن الكلام.

قلت قاطعا صمته:

ـ كنت أرغب، منذ عودتك، أن أسألك عن مصير حمولة الربيعة، ولكنني فضلت انتظار أن تشفى.

قال وقد استعاد ابتسامته:

ـ أتخشى أن تقول ألواح خلقون، أعرف أنك قرأتها، وأحمد الله أنك فعلت، على الأقل أنت الآن تعرف قيمة ما أودعك الربيعة.

طأطأت رأسي، وقد استحيت أن يكتشف الأمر لوحده دون أن أعلمه به بنفسي.

ـ لولا ما طرأ كل تلك السنوات، لكنت رافقتك إلى بلطرش ولكنك تعلم ما قد أواجهه من مخاطر، فالجميع يتربصون بي: الفرنسيون وعرب الصحراء، حتى بلطرش بعد انضمامه إلى الحاج عبد القادر صار مصدر خطر علي.

ـ إذن، بمَ تنصحني؟

ـ ترسل إليه، واعمل بما يوصيك به.

ـ أما زلت توصيني به وقد أصبح عدوك.

ـ ليس الأمر بهذه البساطة. فالذي بحوزتك هو عندي وعنده وحتى عند الحاج عبد القادر أهم من كل عداوة تتصورها. ومع هذا سأسر إليك بأمر لم أقله أبدا لغيرك.

استويت في مكاني، وقد تملكني الشغف أن أعرف هذا السر:

ـ لقد ناصبت الفرنسيين العداء منذ دخولهم الجزائر، ولكنني رغم معاركي الكثيرة معهم، لم أحاربهم أبدا لإيماني بقدرتي على طردهم من هذه الأرض، فلطالما كنت مقتنعا بقدرتهم على سحقي واحتلال كل الأرض. لم أكن راغبا إلا في المناورة لأضمن الأمان لنفسي وأهلي وقومي الذين كانوا يأتمرون بأمري، أما الحاج عبد القادر فهو مؤمن بقدرة الشعب على التحرر وطرد الفرنسيين، على الأقل هو مؤمن بهذا الآن، ولكنه وهذا أمر أكيد، سيستفيق ذات ليلة ويدرك أن حلمه لم يكن أكثر من وهم، وسيعرف أن الفُرقة التي

فصمت ظهري وأقعدتني الفراش وسلبتني كل سلطتي، هي نفسها التي ستجعله يتوقف عن الإيمان، ولا يبحث إلا على أمانه وأمان أهله وأقربيه. هذا ما يجعلنا نختلف الآن وننصب لبعضنا العداء، وهو نفسه ما سيوحدنا ذات يوم، ولعله أيضا إذا وجدنا من يكتب تاريخنا بنبل، ما سيجعلنا نكتب على نفس الصفحة من التاريخ.

بعدها بأيام، سافر أحمد إلى وادي عبدي ليساعد سكانه على مواجهة الجنرال بودو في حملته، ومذ ذلك الحين لم أره، حتى سمعت بوفاته في سنة الخمسين في مدينة الجزائر، سنتان بعد استسلامه.

أما أنا فانتهت رحلتي في تندوف التي وصلتها عام تسعة وأربعين، بعد أن نصحني أحد أغوات الشريف بلطرش بحفظ أمانة الربيعة فيها، وكنت قد رحلت إليها أسبوعا واحدا بعد وفاة زوجتي فاطمة، ففضلت أن أترك ولدي رابح عند أخواله يرعونه، أين تزوج وأنجب ذكرا سماه بلقاسم[1] بحسب ما أخبرني به.

---

(1) علق السايح بما يلي " في عام 1883 أصدرت السلطات الفرنسية قانونا يمنع الانتساب إلى الآباء والأجداد، فعوضت الأسماء الثلاثية والخماسية بأسماء ثنائية من لقب واسم شخصي، وتحول اسم ولد سيباستيان من رابح بن الربيعة بن فراش بن حمدان، إلى رابح فرّاش، وهو بدوره أنجب ذكرا اسمه بلقاسم، ولست على يقين إن كان هذا هو والدي، أو أن الصدفة ما وحّدت ألقابنا". وأضاف قدور: "تحققت من شجرة الأنساب، فوجدت أن نسب أبي بلقاسم ينقطع عند حمدان، وأنه هو حفيد سيباستيان دي لاكروا، ولا شك عندي الآن من أني من صلبه.". **"المؤلف"**

مقتطفات من كتاب "أحاديث الوافد بن عباد"

جمع الكتاب وحققه: الأخوان فرّاش[1]

مقدمة

هذه قصة الحق، لم أبذل فيها لإظهاره إلا ما يبذله النبت حين يتلقى المطر، جمعتها في كتاب ورجائي أن ينشر بين العالمين، ويعقله الناس ويفهموا ما قضى فيه الوافد بن عباد عمره[2] لإظهاره، ولولا ما تلقيته عنه وأنا أجمع حديثه لقلت أنه نبي مرسل، لذا أكتفي بما قاله في حديث السر " يا أبناء هلابيل[3]،

(1) لم أعمل بطلب نوى شيرازي، حيث فضلت أن ينسب العمل للأخوين السايح وقدور فراش وليس لهذا الأخير فقط، وعلى عكس القسم الأول من الرواية، حيث أعملت الخيال وكتابتي، فإن القسم الثاني أنشره كما في المخطوطة التي سلمتنيها نوى شيرازي، والقسم الثاني هو بالذات الكتاب الذي تكلمت عنه نوى في القسم الأول، لذلك فإني بريء من كل ما جاء فيه، وأنصح القراء أن يكتفوا بالقسم الأول رفعا لأي أذى قد يصيب عقيدتهم بسبب سوء الفهم، وإذا أصروا على قراءته فأنصحهم ألا يحكموا عليه بالظاهر وحسب، ومع هذا لست متأكدا بعد من نشره كاملا. (المؤلف)

(2) بحسب زعم خلقون بن مدا الذي سيلي التعريف به، فإن الوافد بن عباد لم يكن إلا غلافا لروح معلمه الذي يدعوه بالصاحب، وهو آخر أغلفته المتعددة منذ آدم عليه السلام، وحسب ذات الزعم فإن الصاحب لا يبعث إلا في جسد من ذرية هلابيل بن آدم.

(3) هلابيل بن آدم، أحد أبناء أبي البشرية آدم عليه السلام، لم يذكر التاريخ شيئا عنه

إنما أنا منكم مفرد بجسد بعثت فيه لكم لئلا تختلفوا، فانظروا وجها سينخره الدود بعد حين، فإن نسيتموه فلا تجزعوا، فكلٌّ راحل بغير دابة، وكلٌّ إليه مآله، ثم احفظوا ما لقنتكم وأورثوه ذريّتكم ليورثوه ذريتهم، حتى إذا جاء يوم القصف[1]، كان لكم ولهم ذودا، ولا تجعلوه خلفكم لا تنظروه، ولا قبلكم فيسبقكم، إنما الصاحب بالجنب، والجليس بالجلسة، وقد جاءتكم الرسل بكتب من السُّدرة، حرفتم جلَّها لتتبعوا في شرعة الحق ما لم يشرعه هو، حتى جاءكم آخرهم بوعد حبيبه[2] أن لن تقدروا على كتابه، فجلّدتموه وجمَّدتموه حتى ضمَّه الرفُ وألفه الغبار. وقلتم بعدها هذا شرعه وهذا شرعنا، حتى بعثتُ في جسدي هذا الذي

ولا عن ذريته، غير أن سيبستيان دي لاكروا المترجم الفرنسي، نقل نصا يقول أنه ترجمة لنص بابلي قديم جاء فيه: " وقفا ينظران إلى جسديهما، وفي يمين كل واحد تفاحة قضم بعضها، كانت هذه أول مرة يكتشفان فيها جسديهما.. شعرا بشيء يملأ الفراغ الذي كان بينهما، التصقا. سقطت التفاحتان وتدحرجتا إلى حيث كان جاثما على ركبتيه يراقبهما بشغف. على شفتيه ابتسامة منتصر، وعلى شفتيهما كانت الرغبة تحرق أول الحقول.. لهذا ولد، وبهذا وئد، ولأجل ما اقترفاه قتلاه بالنسيان.. هناك حيث لم تكن الكلمات بعد، جعله أبوه آدم في رحم أمه حواء. لم يكن كإخوته اللاحقين في شيء غير النسب. ولد بين السماء والأرض حين نزل أبواه إعمالا لأمر السماء. كرهه أبوه لأنه يذكره بيوم نفي من السماء، ونكرته أمه لأنه ثمرة شهوة خلقها العصيان. ولأنه لم يكن ابن الأرض فتحكمه شريعة والده، ولا ابن السماء فتحكمه شريعة السماء، ظل بينهما منتظرا أن تقرر فيه المشيئة حتى بلغ العشرين دون أن تقرر، وكان إذ ذاك قد أوتي من أبويه إخوة كثر، فكلم أباه أن يزوجه بواحدة من أخواته فأبى عنه، فقد كان ميلاده مفردا من بطن أمه، أما بقية إخوته فقد ولدوا توائم، يزوج الواحد منهم توأمه لأخيه، فكان عليه أن يموت وبذره فيه". وأضاف دي لاكروا: "قيل أنه بعد المقتلة، نكح الأنثى الفائض، ومنها نسله".

(1) غالبا يقصد القيامة.

(2) يقصد الرسول محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم.

سيفنى بعد حين، لأظهر السبت والمرعى، والحق الحق، لا مرعى غير مرعاه، ولا سبت إلا سبت حبيبه، فما أنا إلا كاشف الموجود، فانظروا على أي درب ستمشون..

والحق الحق، قد تكشف لي ستر اللاحق وأرى بعضكم يقول الوافد آخر الرسل ومنتهى الأنبياء، وأرى غيرهم يقوّلني غير ما أَمرت به، فيا أبناء هلابيل، لم تزل الدنيا بخير حتى يأتي هؤلاء ممن تكشّف لي لاحقهم، وإني بريء منهم فاشهدوا...".

ولقد جهدت في جمع ما تشابه من أخبار الوافد بن عباد عن غير طريق أصحابه خَلَقون بن مدا وزَمَرْدك بن يوسف الشمّاس وأكيلا بن القُمَيط[1]، وعن هؤلاء معظم الأخبار، إلا أن خلقون بن مدا كان أكثرهم رواية عن الوافد بن عباد، ولعله كان أقربهم من صاحبه ووريثه، فقد جاء في حديث الجليس " يوشك الناس أن يهلكوا حتى يصير بينهم ما بيني وبين خلقون (وأطبق كفيه على بعضهما).". وجاء في نفس الحديث " ألا إنه مني(يقصد خلقون) كجلدي، ليس بيننا ما يُرى بعين الظاهر، ألأحدنا غنى عن جلده؟!، كذلك مني خلقون، ولو أنني اخترت ساع الرقاد[2]، لدعوت الحق أن يبعثني فيه أو في ذريته، فهو الصاحب والجليس، والوارث والإرث، وإني لأرجو في ذريته أن يجري فيهم حب الحق كما يجري فيّ حب خلقون"، وغير ذلك من الأمثلة كثير.

وأرجو أن يكون الحق ألجم باطلي فلم يمتد إلى هذا السفر الذي أخذ عمر شقيقي السايح وقد سبل حياته لجمع معظم ما فيه وترجمة بعض نصوصه من الثمودية إلى ما نعرفه من عربية، وفي

(1) هؤلاء هم مريدو الوافد بن عباد.

(2) الموت.

ذلك أبرئ ذمتي من أي خطأ في الترجمة أودى بالحق، ولئلا يضيع الأصل نشرت صورا للوثائق الأصلية وأعدت نقلها وتبييضها على مثل ما هو محفوظ في ألواح خلقون وبعض اللفائف التي وجدها المترجم الفرنسي سيباستان دي لاكروا [1]والتي رجَّح أن تكون قد كتبت في القرن السابع ميلادي، والذي حفظها في عهدة الرجل الصالح سيدي محمد مناد بن شريف [2]عام 1849 بالمنطقة المعروفة بالرابوني والواقعة في الوقت الراهن في ولاية تندوف الجزائرية، وبقيت في عهدة ذريته لا يفتحونها حتى آخرهم سيدي عيسى بن قويدر الذي توفي عام 1981 ولم يخلف ولدا. وكان أبوه قد رحل إلى قرية بن يعقوب شرق مدينة الجلفة، وفي ذلك قصة لا بد أن أرويها، فقد حدثني بعض أعيان زنينة أن والد سيدي عيسى رأى فيما يرى الصالح أنه شق ثوبه على صدره يسير في لجة حتى أوشك على الغرق، فإذا بيد تمتد إليه تسحبه.

قال قويدر بن عبد الله(والد سيدي عيسى): لولا غمة الرؤيا لقلت أنه النبي حبيب الله، قال: قلت أنجاك الله كما أنجيتني، فقال المنجد: فعل الله بي ولم يفعله بك بعد، فاحمل حرثك وأمانتك إلى حيث يريدك الله، لئلا تفعل تبور أرضك وتهلك. قال: وأفقت بعدها وقلت أضغاث أحلام، وبقيت عمرا لا أرى شيئا لنفسي وأراه لسواي، حتى بلغت الستين بلا ولد ولي في ذمتي أربع. فشكوت حالي إلى الله لعله يرأف بي كما رأف بزكريا، حتى أراني الله

(1) مترجم فرنسي، من مواليد ليون 1778، دخل الجزائر عام 1830 رفقة الكونت دي بورمون، وله بحوث هامة حول حياة البدو والتوارق

(2) محمد مناد بن شريف بن أحمد بن المخلوف بن يوسف بن عيسى، ولي صالح لا يعرف الكثير عن حياته. عاش ومات في تندوف، وكان لديه مزار يحمل اسمه، وقد ذكره سي محند أومحند في بعض أشعاره باسم سيدي مخلوف.

ما رأيت في جدة عمري، فتدبرت رؤياي وأوّلت الحرث بالزوج والأمانة بما تركه رومي من عبدة الحجارة عند جدي وأبي، وبقيت مرتحلا حتى بلغت الجلفة، ولما رأى أهلها ما كنت فيه أنزلوني في بن يعقوب وأجروا علي الرزق جزاء إمامتي لهم، وما هو إلا عام حتى حبلت آخر زوجاتي والحمد لله الذي يخرج الحي من الميت".

وروت لي الأعيان أن سيدي عيسى بن قويدر عاش بلا زوج حتى جاء أجله، وأوصى أن تغلق داره حتى يسأل عنها رجل ذكر فيه "يأتيكم بعدي رجل من الحضر يسألكم عن جدي وأبي، فأرشدوه وأعطوه مفتاح داري"، وذكره بأوصاف أخرى. ولقد حسب أهل بن يعقوب أن ذلك الرجل أخي السايح، جاءهم في خريف2002 وسلموه مفتاح الدار فوجد فيها الألواح واللفائف مدفونة في أرضها، فأنقذ الألواح جميعها وأعادها إلى الرابوني، وجعلها في ذمة حبّوب ولد سليمة (لا يزال على قيد الحياة)، أما اللفائف فقد تلف معظمها، وحين توفي أخي السايح أوصى لي أن أتم بحثه ففعلت، ولكني بعد أن قرأت ما في اللفائف والألواح، قررت أن أخفيها وأجعلها في ذمة رجال ثقات أعرف ورعهم، ووزّعتها بينهم لئلا ينفرد الواحد منهم بالحقيقة دون سواه، إلا لوحا واحدا جعلته أين يعلم الله وأعلم، فقد كتب بحسب ملحوظات سيباستيان دي لاكروا في عهد سابق لكل كتاب، ولو ظهر ما فيه لهلك الناس بشكهم أجمعين.

وقبل أن أبدأ في وضع الكتاب، أحب أن يفهم الناس أن لا غرض لي من كل ما سيلي، إلا وجه الله لا غير، وليغفروا لي بعدها جرأتي، أما أنا فأبرأ لله من كل من سيقول عن هذا الكتاب أنه سفر الشيطان والباطل، أقول ذلك وقد حضرني قول الوافد بن عباد في

حديث النهاية [1]"لا سر بعد اليوم، فتح الباب وشقت الصدور، فبأي عذر تلاقونه وإنكم لملاقوه، أبعذر أبيكم هلابيل أم بجرم هابيل وأخيه؟، لا والحق وقد جعلتُ بين ظهرانيكم، لا نبيا تقتلون ولا رسولا بكتاب ولا وليا بكرامة ولا صالحا بصلاة ولا ناسكا بعبادة، إنما أنا كلمة سطرت فأحسنوا قراءتها، وزخة ماء انظروا أين تجعلوها، أفي فيٍ شقَّه الظمأ أم في أرض تجود إذا حرثت؟ لا والحق وقد حملتني إليكم الريح بأمره أن تعودوا إلى مرعاكم، لا خوف عليكم من ذئب قتله الراعي ولا من جوع محقه المرعى، فإنها لساعة ويحملني الريح إلى حيث جئت، وإنها لأخرى وأبعث في مماتي، فلا هذا الذي يخطب فيكم الوافد بن عباد، إنما وعاء جعلتني المشيئة فيه، وكنت قبلها في سواه باسم غير الوافد بن عباد، وكنت في كل زمان أسمع أوعيتي تشكوني لصاحبها، حتى قضى بيني وبينها، فلا أبعث في غير جسد الوافد أبدا، ولقد سمعت نجوى أوعيتي فأشفقت عليها من حملها وعرفت عدل الله...(قال خلقون: فصاحت الخلائق: والحق بم اشتكت، قال "يعني الوافد")..ناجته تقول: "والذي أنت هو الحق، أرحنا من وطأته واحمل عنا حمله.." وأخذت تدعوه بكل اسم من أسمائه حتى أتمت ما تعرفون ولم يستجب، ثم دعته بكل اسم من أسمائه مما لا تعرفون ولم يستجب، حتى إذا دعته باسمه السري استجاب..(قال خلقون: قلت يا صاحبي ألا تقول لنا شكوى جسد الوافد)، قال الوافد: قال وعائي الذي تنظرون: "والذي أنت هو

(1) علق سيباستيان دي لاكروا: " يعرف هذا الحديث أيضا باسم "حديث البعث"، وبه يستدل الوافديون على بعث الوافد بن عباد مرة كل زمن". وأضاف قدور فراش: "إيمانهم بهذا الحديث جعل المتأخرين منهم يعتقدون، أن روح الوافد لن تبعث إلا في جسد من تسمى بـ"الوافد" أو "عباد". وهو على ما يبدو تفسير بالظاهر، حرف رسالة الوافد بن عباد الحقيقية".

"وذكر الاسم السري"، الخارج عن جسدي كالخارج عن جسدي لا يشعر بي، والساكن في جلدي كالساكن في جلدي ليس أنا..ّ

فنـزل الحكـم أن لا أبعـث فـي غير هذا الجسـد، ولكنني تركت لكم سـراجي وناري، وسـرجي وراحلتي، وأرضي ومعولي، إن شئتم اركبـوا راحلتـي واحرقـوا أرضـي بناري، فأكون نبي النار، وان شـئتم امتطوهـا تقودكـم إلـى أرضي، فتحرثوها بمعولـي، واجعلوا لكم فيها بيوتا يدخلها نوري من حيث شاء الله، فأكون نبي النور". كذلك هذا الكتاب.. من قال عنه سـفر الشـيطان فهذا شـأنه، أما من قرأه بعقله وقلبـه معـا، فلـن يجـد فيـه إلا ما وجد خلقون فـي صاحبه الوافد بن عباد، نور على نور...

قدور فراش

الكتاب الأول

باب ما ترجمة سيباستيان دي لاكروا عن ألواح خلقون

"بايعت صاحبي على خمس: ألا أحيد عن دين حبيبه، وألا أقدس غير الحق، وأن أجمع أحاديثه في كتاب واحد، وألا أكشف الاسم السري، وألا أحدث الناس عن لاحقهم وقد تكشف لي بحمد الله، وقد عنيت في هذا الكتاب بجمع أحاديثه، ما سمعه الضعيف إلى الله عنه وما نقلته عن أكيلا وزمردك، (وأضفت إليها حديث التيه، وهي قصة لقائنا بالصاحب الوافد بن عباد وبداية الطريقة)[1] وجعلت في حواشيه أخبارا نقلت عن رجال كأنهم الوافد وإن لم أتمحصها لعلها تنفع عباد الله".

(خلقون بن مدا)

---

(1) إضافة لسيباستيان دي لاكروا.

سفر البداية
أو حديث التيه(1)

قال خلقون:

كنا ثلاثة رابعنا الضياع، شدنا التيه إلى ربعه، فرأيناه رملا لا ينتهي وظمأ شق الشفاه، وبقينا نسير لعلنا نلقى ركبنا أو تلقانا رواحلنا وقد هجّت بما عليها من ماء ومتاع، وما زلنا نأمل ونسير حتى انقطع الرجاء، فسقطنا صرعى، ينظر بعضنا بعضا وكأنها نظرة وداع، ثم أُطبقت جفوننا ونحن نحاولها، فأدركنا أنه الردى. وما هي إلا ساعة أو أقل حتى استيقظت ووجدتني في خضرة بين خرير وشجر... وصاحباي قد هجرا حواليَّ ومبلغ بصري، فقمت آكل وأشرب وفي قلبي حرقة على صاحبيّ والله ما أطفأها ارتواء ظمإي ولا شبع بطن لم يدخلها الزاد ثلاثا..

وحين ألفيت الروح تعاودني، حملت خطاي أبحث عنهما حتى انتهيت إلى طلل وحجارة، وتراءى لي ظل رجل فقفيته حتى انتهيت إلى دار طين دخلتها، فألفيت أسرّة وفوانيس، وقلت "عامرة

---

(1) لم يأت هذا السفر بلسان خلقون، وهو مكتوب بالعربية ولم يترجم من أي لغة، لكنه جاء ضمن ما فهرسه سيباستيان دي لاكروا وسماه "أحاديث الوافد بن عباد"، حيث افترض أنه من حديث خلقون بن مدا لشموله قصة ضياع ثلاثة رجال عرف اثنان منهما عن نفسهما باسمي "زمردك" و"أكيلا"، كما جاء في نفس الحديث أن هؤلاء التقوا رجلا اسمه الوافد بن عباد، ولأن الأحاديث اللاحقة تؤكد أن الوافد لم يملك إلا ثلاثة مريدين، فقد افترض دي لاكروا أن المتحدث هو خلقون بن مدا.

هـذه الـدار واللـه.."، فـلا يضـيء الفانوس إلا صاحبـه، وخلصت أن أصحابـه فـي مـكان قريب، فقد كان مرتبـا ونظيفا، ثم اخترت الفُرُش الأقل شـأنا وأسـلمت نفسي للكرى...ووالله لا أدري أنمت ساعة أم عمرا بأكمله.

استيقظت وقد نلت من الراحة ما وسـعني، فوجدت الدار كما تركتها لحظة نومي، وهالني أن رأيت الفوانيس مطفأة، وبجانب فرشي ثـوب مـن الراشـوخ[1] فقلـت في نفسـي "لعل أصحـاب الكوخ رأفوا بـي، فلـم يسـعهم إيقاظـي، ولعلهـم أهل بـرّ وصلاح فتركـوا لي ثوبا يعـوض ثيابـي الرثـة"، فنفضت الثوب أتفحصه، فنثر كتابا أحسـبه من جلد الماعز فحملته وقرأت:

"ما أنت إلا سـراب ناء بالندم   فالعمر بعد سـنين العمر كالعدم
والعبـد نـاي بغيـر اللـه لـم يقم   شـجوا فصـوت الحـق كالنغـم
هذا فؤادك قصر دون أبراج"[2]

ووالله ما أنهيتها إلا وقضيب من جهنم يغرز في صدري، وقلت فـي نفسـي "لعـل أصحاب الـدار من الدراويـش المعتزلة"، وارتديت الثوب وخرجت باحثا عن أهل الدار وأصحابي، وما زلت كذلك حتى وجدتني في بطحاء قد نفر الأخضر منها وعافتها الجنان، في وسطها قبـران وثالـث لـم يكتمـل، فقرأت علـى أحدهما "هـذا قبر الصاحب الأول" وعلى الآخر "هذا قبر الصاحب الثالث" وما شـعرت بنفسـي

(1) لا أصـل لهـا فـي العربيـة أو غيرهـا، وقـد تكـون تعني الحرير حسـب ما يتبين لاحقا، ولم يستعمل هذا المصطلح إلا هذه المرة.

(2) لا يعرف صاحب هذه الأبيات، وبالنظر إليها فهي محدثة ركيكة لا تصيب في القلب دهشة، ربما أضيفت لاحقا إلى النص لاختلافها ولغة السفر، أما ما ذهب إليه سيباسـتيان دي لاكروا من أن اللفافة المأخوذ عنها هذا السـفر يزيد عمرها عن الأربعمائة سنة فلم يتم التأكد منه.

إلا وأنا أنهش الأرض نهشا بيدي، وقلبي يرجف حزنا أن يكونا لصاحبيّ...

فلما نبشت ولم أجد غير التراب، عاودني الصرع حتى وجدتُني ساربا ضحى، فنظرتُني ولا الشريد، وقد هتك ثوبي ودنس، فقلت أعود حيث الدراويش، لعلي أجدهم فيعينوني أو أجد ثوبي الأول فأستر عورتي، حتى إذا بلغت دارهم، وجدتها يبابا، حتى ما فيها ارتحل، فضربت على صدري فأصدى بكربتي.

عدت أدراجي لا يسترني غير الخلاء، فلم أجد دربي الأول لأنتهي حيث كنت وصاحبيَّ أول مرة، والجوع يذكر الشبع خيالا، حتى إذا أسرف الظمأ وقعت والموت يفرش لي.

حين صحوت، وجدتني بين صاحبيَّ في ظلمة لا تصرفها شمس وكأن الذي كان ما كان، فحمدت الله حيث جمعنا من جديد، ولما استيقظا سألاني وسألتهما، ولكنا لم نصب يقينا من بعضنا، ونظرنا حوالينا وقد ألفت الظلمةَ المقل، فأدركنا أننا في كهف لم تلجه حياة، وقمنا لتونا نسأل الخروج ولكن لا جواب، ولما جرنا اليأس إليه، قعدنا ننتظر قضاء الله ونقرأ شيئا من كلامه، حتى صدا الصخر بصوت وكأنه الطرب، فتبعنا منه ما وسعنا وقد نشلنا الأمل ونسينا ما كنا ننتظر منذ حين..

وفي حد البصر، سمعنا الصوت يدعونا فاستجبنا حتى استوقفنا الداعي فوقفنا، لا ندري لخوف مما لا ندري أم هو الحين بما اقتضى، ثم جلسنا حيث أمرنا والظلمة تحفنا وقد انقشعت حيث يخرج الصوت، وكأنه مشكاة لا تضيء إلا حواليها. ثم لفنا الصمت والصوت قد انقطع، والنور يزيد من حيث كان حتى شق طريقه إلينا على حين غرة، فأبصرنا شيخا حسن القد يجلس القرفصاء في ثوب

ولا الثلج، فتطايرت عنا الوحشة وضمنا الأمل.

قلت: أنجانا الله بك يا شيخ فدلنا، فقد تهنا ولا هادي. فقام نحونا يسعى إلينا، يمشي ولا يمشي، كأن الريح بين رجليه تحمله، ثم جلس بيننا وأبان ضرسا ولا ضرس ولد في أول المنشأ، ووالله كأنه شق صدري ونفخ فيه ما ينفخ الله في صدر كافر فيؤمن، ورأيت صاحبيَّ مثلي في الراحة ثم قال: فهو التيه إذا، ولكن أين الدليل؟

فقال زمردك: كنا بأرض نعرفها وتعرفنا نسير إلى أخرى ألفتها رواحل تجارتنا، حتى حملت الريح علينا حملة فتشتتنا وفارق ثلاثتنا أهله إلى قحط لم نره يوما، فسرنا ثلاثا لا تظلنا فيها إلا المنية حتى خلناها تمطر لولا الله أجّل ماءها وعجل لقياك لترشدنا. ابتسم الشيخ وأشار إلينا أن نطعم ونسقى، فهالنا أن وجدنا عنده ما لا نجده حتى في ديارنا ونحن على يسر وهو على عزلة، ولكن الطوى والظمأ ألجمانا فلم نسأل، ولما شبعنا وارتوينا صار ما هالنا خيالات ذكرى..

ثم إنها لساعة.. وعاودنا الرجاء أن يدلنا الشيخ على ديارنا، وحينما سألناه أبى إلا أن يضيّفنا قبلها ثلاثا وقال إنها من عادات قومه، فرضينا ما دمنا قد أمنا، وأنزلنا في جوار مرقده، حيث الفرش والأكل والشراب، إلا أنه لم يطعم معنا قط، فساءنا ذلك منه وكاشفناه بما فينا، فأشار إلينا حيث حصيرة مفروشة أن اجلسوا، فجلسنا وجلس قبالتنا وجمع ساقيه إليه يحدثنا، فكان هذا أول حديث له فينا، وكان هذا أول الخير..

سفر الخلق أولا
أو حديث النسب

قال خلقون:

كنت في داري حتى جاءني زمردك يخبرني بدعوة صاحبي، فحملت الخطى حتى وجدتني بين يديه وبينهما خلق كثير، وجلست آخر الصف لئلا أقطع حديثه، فأشار إليّ فجئته وأجلسني بجانبه حيث كان زمردك وأكيلا، ثم قال: ألا أخبركم بأبيكم في الجنة؟ قلنا بلى، فمد ساقيه وقال: هذا حديث يطول، فاجلسوا كيف راحتكم، ولا تبالوا َمن المعلم ومن المُريد ثم قال:

قالت الكتب إننا من آدم وصدقت، وهو أولنا في البسيطة، خلقه الحق من طين الأرض ونفخ فيه من روحه ثم جعله في الأرض قرير العين..

قلنا: بل في الجنة والحق..

قال: هو ذاك ..هو ذاك، ولكنها على غير ما تفهمون..

قال أكيلا: صدق الصاحب، فلا يوصف ما لم ير.

فضحك صاحبي حتى ظهرت قاطعاه وقال: إنما هي على ما تعرفون، وقد رأيتموها خلفا وسلفا، ولولا خوف الباطل لقلت هي هي، وما جنة أبينا إلا من جنان الأرض كما تعرفونها وعرفها آباؤكم قبلكم.

قال أكيلا: أستغفر الحق، إنما جنته جنة السماء كما قالت الكتب.

قال الصاحب: بل استغفر الحق على جهلكم، أتقولون أنها جنة السماء وما جاء في الكتب إلا أنها جنة، والحق عماكم ما تريدونه عما هو حاصل حقا، ففي أي الكتب تلك يقول الحق أنها جنة السماء.. يا أبناء هلابيل لا يغرنكم سفه السابق القريب على عقل اللاحق البعيد، فلا الدنو دنو ولا البين بين، إنما هؤلاء رجال ونحن رجال، فأي فضل لجليس نبي لم يخير في مولده، وأي ذنب لرجل لم يجالس نبيه وعَقِلَهُ كأنه يراه، ألا فاسمعوا مني: إنما الجنة دار نعيم لأهل الحسنة، لا يدخلها من الجن والإنس إلا من أتى الله بقلب سليم بما عملت يداه ونال من رحمة الحق، وأما آدم وحواء لم يكونا على اختبار فيجازان بها، وما كانا ممن يرجون الرحمة وما جنيا على نفسيهما بعد، ثم إن بعض كتبكم تقول أن الحية دخلتها ووسوست لهما أن يأكلا من الشجرة، وفي كتاب الحق أن الشيطان دخلها ووسوس لهما أن يأكلا منها وقد لعنه الله قبلها حين لم يسجد لآدم، أيدخل الجنة كافر؟ لا والحق، فما بالكم برجيم كإبليس، ثم لو دخلها ألم يحلل لآدم ما حرم الله فأغواه، أتكون الجنة بإثم آدم مرتعا للذنب، لا والحق، إنما جنة الأرض التي يدخلها إبليس كما شاء إلا أن يذكر فيها اسم الله، وله فيها بوعد الحق أن يغوي آدم ما قدر إلا أن لا يشاء الله، وقد شاء أن يغويه، ثم ألم تقل الكتب أن الجنة في وصفها لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر بقلب بشر، أيكون هذا إذا رأتها عينا آدم وحواء، لا والحق.. هذا ما ورثتموه عن آبائكم وآبائهم، وما الأمر على ما ظنوه حسنا..

قال أكيلا: وبعد..

قال صاحبي: وحين نفخ الله في آدم من روحه، هيأه ليخلفه

في الأرض وجمع الملائكة وفيهم إبليس سيد من ساداتها، ثم قال لهم إني جاعل في الأرض خليفة، فحسبت الملائكة أن خليفة الله من كانوا في الأرض ساعتها فيها يفسدون ويسفكون الدماء فقالت أتجعل فيها من يفسد فيها؟.

قال خلقون: قلت يا صاحبي، تلك مقولة لا نعرفها ولم تعرفها أمم سابقة، وقد ورثنا وتوارثنا أن المقصود بالخلافة آدم وبنيه، وأن الملائكة أدركت ذلك فخشيت أن يكون آدم وبنوه على ما كان عليه قوم من الجن، ورَّثهم الحق أرضه فأفسدوا فيها وأباحوا الدماء، فقالت مقولتها تلك، فأبادهم الله أن سيّر إليهم جنده، وقالت بعض الكتب أن إبليس كان قائدهم، فحظي عند الله بما حظيه، حتى يوم خالف أمر الله فأخرجه من رحمته.

قال خلقون: فضحك الوافد حتى خلناه جن، ثم قال: ويحكم يا أبناء هلابيل، والحق ما ورّثكم آباؤكم ذهبا ولا وُرقا، إنما كواغد[1] لا تبيعون بها ولا تبتاعون، وقمّطوكم فحسبتم أنه قمط الاستقامة، كيما إذا اشتد عودكم تسيرون بلا عوج، ولكنه والحق كفن لا يدخله النور ولا تخرج منه العتمة، لا يشتد فيه عودكم أبدا.

يا أبناء هلابيل، انظروا فيما ورثتم واقسطوا في ميزانه، أهو من كتاب أنزله الحق على أجنحة الروح القدس، أم هو من حديث حبيبه سبله الحق له فقاله؟.. لا والحق، إنما هو إرث الرأي أخرجه رجال كحواري اليسوع، حسبوا أنهم جمعوا الحكمة بين ضلوعهم، وورثوه لرجال ورجال، كل جعل فيه شيئا وشطب شيئا، ووالله لم يزلوا على شطب وكتابة، حتى نصر الباطل شطبُهم، وصار اليسوع يقول بلسان هؤلاء وهؤلاء وما قال.

(1) أوراق مالية

يا أبناء هلابيل قد جاءكم رجل صدقه الصادق فصدق، وفتح الباب فدخله الناس أجمعين، وجالسه القوي والضعيف، وشاركه الغني والفقير، وأخذ منه الجاهل والعالم، وقال عنه الفصيح والمتلعثم، حتى إذا خاطبهم قال "أصحابي"، ما فرق بينهم بطول مكوث، ولا قال فيهم قديم وحديث، إنما حملهم على أكتافه ولم يكل، وهو يعلم ما لهم وما عليهم، ولكنه كان أعدل من أن يعطيهم بصحبتهم له مفاتيح الجنة والنار، وما كان لحكمته أن يجعل كل الحق بين ضلوعهم فيكتبوا ويشطبوا، وإنما جمع الحق في كتاب وعد الله أن يحفظه وفي حديث قاله الله بلسانه، لذلك هم رجال كأي رجال، لم تُعصم جوارحهم ولم تحصن قلوبهم فلا يدخلها الشيطان، وحسبهم من مكرمة أنهم نظروا إلى الحبيب بأبصارهم وشهدوا الوحي ينزل فيهم وبينهم، ويكفينا مكرمة أننا ننظر للحبيب ببصائرنا ونشهد للوحي دون أن نشهده، فأيُّنا أصدق وأينا أولى وأينا أفضل، أرجل دخل داره وجلس إلى زوجه يأكل من رغيف خبزته، أم رجل دخل داره وجلس إلى قصعته يخبز ما يأكل، ولكني أقول هم كنحن بفضل الحق، باطلهم كباطلنا، وحقهم كحقنا، كذلك الأمم رجال برجال، إلا المصطفين...

قال أكيلا: وبعد يا صاحبنا وبعد..

قال خلقون: فصمت الوافد حتى صفا قلبه وأنشد شيئا كأنه من الشعر وليس منه: أنا مثلكم/ لا تخافوا انعكاسي/ فمهما يكن لست إلا انعكاس خيال/ وأي انعكاس تخافونه من مرايا مطيّنة ليس تنفع حتى خزانة..

قال خلقون:

ثم بكى الوافد فبكينا لبكائه، وجمع رجليه إليه ففعلنا مثله،

ثم مسح بكمه وجهه وقال: أتعلمون ما أبكاني؟ . قلنا "لا، الحق والصاحب أعلم". قال: كذبة صارت صدقا، وحقا نخجل منه. فأما الكذبة حين زعمنا أن أبانا كان المصطفى الثاني، وأما الحق أننا نخجل من نسبه.

قال زمردك: ألا شرحت لنا صدورنا فنفقه.

قال الصاحب: ألم نقل أن الملائكة علمت بلاحق آدم وبنيه لأن الله خلق قبله خلقا فأفسد وسفك الدماء؟.. [1] ألا إنها فريَّة على أبينا أن يكون المصطفى الثاني. لو كان الأمر كما افترينا، تكون الملائكة قاسته بغيره من خلق.. أليس القياس عمل العقل الذي لم يمنح لغير آدم.. تلكم الكذبة التي صارت صدقا.

قال زمردك: فكيف علِمَتْ واللاحق لم يتكشَّف لها.

قال الصاحب: لأنها رأت آدم في الأرض قبل أن يهبه الله عقله. كان بهيمة كسائر البهائم يرتع في الأرض ويفسد ويسفك الدماء، حتى اصطفاه الحق بالعقل.[2]

قال خلقون: صمتنا، لا ندري بأي بلاء ابتلينا على حين غرة، والصاحب جالس في سكينة يتفحص أوجهنا، حتى قام القوم كلهم من حوله وليس على لسانهم إلا "أستغفر الله"، فإذا فض المجلس دعاني وزمردك وأكيلا لنكمل الحديث.

قال الصاحب: أساءكم ما قلت؟

---

(1) يقصد قوله تعالى " وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة..."، إلى آخر الآية.

(2) همّش سيباستيان دي لا كروا "دليل الوافديين عن الاصطفاء بالعقل ما جاء في القرآن "وعلم آدم الأسماء كلها". وعلق قدور فرّاش: "هذا يطابق ما ذهب إليه شارل داروين في نظرية التطور، من أن الإنسان العاقل نتاج تطور سلالات غير عاقلة"

قال أكيلا: لا ندري ولكن أكمل حتى نرى.

قال زمردك: وأي نسب نخجل منه؟

قال الصاحب: نسبكم إلى هلابيل.

قال خلقون: أهو الذي تنسبنا إليه كلما خاطبتنا؟

قال الصاحب: هو ذاك، أبوكم من آدم.. أتعرفونه؟...

صمت حتى خلنا أنه لن ينطق بعدها أبدا، ثم قال وكأنه يقرأ من كتاب حفظه: "وقفا ينظران إلى جسديهما، وفي يمين كل واحد تفاحة قضم بعضها، كانت هذه أول مرة يكتشفان فيها جسديهما.. شعرا بشيء يملأ الفراغ الذي كان بينهما، التصقا. سقطت التفاحتان وتدحرجتا إلى حيث كان جاثما على ركبتيه يراقبهما بشغف. على شفتيه ابتسامة منتصر، وعلى شفتيهما كانت الرغبة تحرق أول الحقول.. لهذا ولد، وبهذا وئد، ولأجل ما اقترفاه قتلاه بالنسيان.. هناك حيث لم تكن الكلمات بعد، جعله أبوه آدم في رحم أمه حواء. لم يكن كإخوته اللاحقين في شيء غير النسب. ولد بين السماء والأرض حين نزل أبواه إعمالا لأمر السماء. كرهه أبوه لأنه يذكره بيوم النفي، ونكرته أمه لأنه ثمرة شهوة خلقها العصيان. ولأنه لم يكن ابن الأرض فتحكمه شريعة والده، ولا ابن السماء فتحكمه شريعة السماء، ظل بينهما منتظرا أن تقرر فيه المشيئة حتى بلغ العشرين دون أن تقرر، وكان إذ ذاك قد أوتي من أبويه إخوة كثر، فكلم أباه أن يزوجه بواحدة من أخواته فأبى عنه، فقد كان ميلاده مفردا من بطن أمه، أما بقية إخوته فقد ولدوا توائم، يزوج الواحد منهم توأمه لأخيه، فكان عليه أن يموت وبذره فيه.. ولكنه أبى إلا أن يكون.. وتشاء السماء أن تمطر الشهوة من جديد، فيقتل الأخ أخاه ويدفنه.. هناك رآها وهناك قرر أن يحدث أباه مرة أخرى في أن يزوجه بزوج

القتيل فأبى أن يكون له ولد من ولد الزنا.."."[1]

قال خلقون: .. وكأن الطير حطَّ على رؤوسنا، حتى فك زمردك لجامه وصرخ بما كان فينا: " أيكون هذا أبانا؟"..

ليلتها لـم ننـم، سـألت أكيلا وزمردك عن رأيهمـا فلم يجيباني، أمـا أنـا فأدركـت أن هذا لم يكن إلا بداية التعري.. تعرينا، نحن أبناء الزنا.

(هذا بعض ما جاء في كتاب خلقون، على أمل أن أجد ناشـرا يقبل بنشره كاملا.).

انتهى

زموري - فيفري 2010

(1) يقصـد أن هلابيـل نكـح زوجـة القتيـل وأنجـب منها من يدعوهـم الوافد "أبناء هلابيـل"، وأضـاف سيباسـتيان دي لاكـروا: "إن هـذا النص نفسـه الذي ترجمته عـن نـص بابلـي، ينتهـي عند قوله ".. وبـذره فيه"، وقد يقصد صاحبه أن رفض آدم تزويج هلابيل، كان لرغبته في قطع نسل بدأ بخطيئة".



رواية

سمير قسيمي

• روائي من الجزائر

صدر له أيضاً:

- «تصريح بضياع»، رواية 2010
- «يوم رائع للموت»، رواية 2009

تغوص الرواية في الجذور الهوياتية للمجتمع المغاربي وبخاصة في بعدها الديني الروحاني الباطني المتجذر في الحالة الصوفية المرابطية المتفتحة على التسامح وقبول الآخر، في الوقت الذي يعمل البعض على إغراق الحالة المغاربية في مستنقع السلفية التكفيرية التي لا تعرف سوى المُطْلقات الوثوقية ولغة العنف والدم.

مقاربة الكاتب لهذا الشأن لم تأت على طريقة الطهوريين الذين لا يرون الطهارة سوى في التعالي على مفردات الواقع، كما كان الفقهاء قديماً يتعالون على طبقة الشطار والعامة والسوقة، بل جاءت مقاربته من منطلق الإيمان بجدل الثنائيات الكونية، حيث يوجد الخير في عمق الشر والشر في عمق الخير، لأن ما نقرره نحن في النهاية من مضمون لهذه الثنائيات، ما هو سوى إسقاط لمنظوماتنا المعرفية النسبية والتي لا يمكن أن يتقيد بها الواقع الخارجي بحال من الأحوال.

سعيد جاب الخير

لوحة الغلاف للفنانة فاطمة لوتاه
www.fatmalootah.com

تصميم الغلاف: سامح خلف


ISBN 978-614-01-0013-8

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
editions.elikhtilef@gmail.com